

مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُورَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

«١٦»

التَّوْحِيدُ وَالشُّكْرُ

فِي سُورَةِ النَّحْلِ

تَأْلِيفَ

عبد الحميد محمود طه ماز

الدَّارُ السَّامِيَّةُ
بِئْرُوت

دار الفقه
دمشق

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم

للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

دار السامية

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

التَّوْحِيدُ وَالشُّكْرُ
فِي سُورَةِ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد؛ فإن نعم الله تعالى على الإنسان كثيرة وجليلة، لا يحصيها عد، ولا يحدها حد، وإن على الإنسان أن يتوجه بالشكر إلى الله تعالى وحده على ما أنعم عليه وأولاه، وما خصه من خصائص، امتاز بها على غيره من المخلوقات.

ومع كثرة نعمه سبحانه على الناس، فإن كثيراً منهم ينشغلون بالنعمة عن شكر المنعم، وينقطعون بها عن طاعة ربهم سبحانه وعبادته.

ولقد جاءت سورة النحل تذكّر الإنسان بفضل الله تعالى عليه من خلال عرضها لثلاث مجموعات لبعض نعمه جلّ وعلا على الإنسان، وتبين له أيضاً كيف يكون الشكر، وارتباط الشكر بتوحيد الله تعالى والانقياد لدينه وشرعه، فهي بحق سورة التوحيد والشكر كما أنها في الوقت نفسه سورة النعم، والناس في العصر الحاضر في أشد الحاجة إلى هذه المعاني.

ولقد جاء الحديث عن موضوعها في هذا الكتاب من خلال خمسة فصول متسلسلة ومتوالية، مع توالي آيات السورة، بحيث تظهر الانسجام والتناسق الكامل بين آيات السورة من خلال الحديث عن معانيها، وهذه الفصول هي التالية:

الفصل الأول: المجموعة الأولى من النعم.

الفصل الثاني: جحود وعناد ومفارقات مستنكرة.

الفصل الثالث: المجموعة الثانية من النعم.

الفصل الرابع: المجموعة الثالثة من النعم.

الفصل الخامس: مواساة وتثبيت.

ثم التعقيب الأخير والختام. أسأل الله سبحانه التوفيق والسداد، وأن ينور قلبي بنور التنزيل الحكيم، وأن يجنبني الخطأ والزلل. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

مكة المكرمة في ١٣/٥/١٤١٠ هـ

١١/١٢/١٩٨٩ م

الفقير إلى الله تعالى

عبد المحمود محمد طه هاز

المعهد العالي للأئمة والدعاة

مَوْضُوعُ السُّورَةِ

إن أي متدبر لآيات سورة النحل، يرى أنها تدور في فلك شكر الله تعالى، وارتباطه بتوحيده سبحانه وطاعته والانقياد لدينه وشرعه.

وقد أبرزت الآيات فضل الله تعالى على الإنسان من خلال عرضها لبعض نعمه سبحانه على الإنسان في ثلاث مجموعات من النعم المتجانسة أو المتصفة ببعض الصفات المشتركة فيما بينها.

كما أبرزت الآيات مواقف أكثر الناس من ربهم سبحانه وما تفضل به عليهم من خلال إعراضهم عن دعوات الأنبياء والمرسلين، وإصرارهم على الكفر والشرك والفجور.

فللشكر ارتباط وثيق بالتوحيد والاستسلام والانقياد لرسالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أن الجحود والكفران مرتبطان بالكفر والشرك والفجور.

وتركيز آيات سورة النحل على هذه المعاني، جاء بمثابة تحليل لنفسية الإنسان وتعرية لحقائق النفس البشرية، وما انطوت عليه في دخيلتها.

وقد ذكر الله تعالى في المجموعة الأولى من النعم، نعمه سبحانه في خلق الإنسان وإيجاده، ونعمه في تنظيم بيئته حياته، وجعلها صالحة لحياته ومعيشته.

وذكر سبحانه في المجموعة الثانية بعض النعم الضرورية لاستمرار حياة الإنسان، وفي الوقت نفسه تمتاز هذه النعم بكونها أدلة على كمال علمه سبحانه وقدرته وتمام مشيئته.

وذكر سبحانه في المجموعة الثالثة، النعم التي يحتاج إليها الإنسان في حمايته ووقايته.

وجاء تعقيب آيات السورة بعد عرضها لكل مجموعة، يدور حول بيان حقيقة الشكر وارتباطه بعقيدة التوحيد والتسليم والانقياد لدين الله مع ضرب الأمثال العقلية والتاريخية لتقريب هذه الحقائق وتذكير الناس بها، مما سيراه القارئ للكتاب، كما اهتمت بعض آيات السورة بثبيت المؤمنين الشاكرين على طريق الشكر، فلا يكون منهم انشغال بالنعمة عن المنعم، أو تعلق بالنعمة بحيث يكفرون بالمنعم ويحددون فضله عليهم.

وكل ذلك بنسق بين الآيات، محكم التسلسل، قوي الاتساق، يدل على أن التنزيل الحكيم هو كلام رب العالمين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الفصل الأول
المجموعة الأولى من النعم

حقيقة هامة

بدأت السورة بتقرير حقيقة هامة من خلال جملة فعلية إخبارية بصيغة الماضي، هذه الحقيقة هي أن كل ما قدّر الله سبحانه من مكونات وحادثات هي كائنة وحادثة لا محالة في وقتها المقدر لها، فما سبق به علمه سبحانه، وتعلّقت به إرادته جلّ وعلا، لا بد أن يقع ويبرز إلى الوجود في الوقت المقدر لوجوده. والحوادث والمخلوقات التي قدّر سبحانه تكوينها ووجودها، ولما يأت وقتها المقدر لها بعد، هي في حكم الحادثة الموجودة.

قرر الله سبحانه هذه الحقيقة ردّاً على المشركين الذين كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وحسابه يوم القيامة استبعاداً واستهزاءً، فقال سبحانه لهم: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ والاستعجال: طلب مجيء الشيء قبل وقته، والله سبحانه لا يعجل لعجلة عباده، فكل شيء عنده بمقدار وأجل مسمى، سواء في هذا النعم والنقم، فلكل نعمة قدرها ووقتها، وكذلك لكل نقمة قدرها ووقتها، وإرادته جلّ وعلا نافذة في كل المكونات، ولا مصادفة في الخلق والتقدير، وكل شيء بتقدير العليم الخبير.

﴿سبحانه وتعالى﴾ تنزهه وارتفع عن صفات العجز والتقصير، فله سبحانه الكمال المطلق، تقدست ذاته، وتسامت صفاته ﴿عما يشركون﴾ [١].

حياة القلوب ونور العقول

كان الأولى بهم أن ينظروا في نعمه التي لا تحصى، والتي تفضل سبحانه بها عليهم، بدل أن يستعجلوا عذابه وحسابه، وأعظم هذه النعم إنزال الوحي

وإرسال الرسل ﴿ينزل الملائكة بالروح﴾ أي بالوحي، فبه تحيا القلوب من موت الكفر والجهل، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ ميتاً فَأُحْيَيْنَاهُ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون﴾^(١).

وقال أيضاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾^(٢)، ولا حياة للقلوب والعقول بدون وحي الله تعالى، في ظلاله يتذوق الإنسان طعم الحياة الكريمة السعيدة، ويدرك حكمة وجوده، ولا معنى لحياة الإنسان بدونه، ولهذا سماه الله تعالى روحاً، لأنه يعطي للمخلوقات كلها معنى لوجودها، ويظهر حكمة خلقها وإبداعها ومهما أوتي الإنسان من النعم، فكما لها وتماها بنعمة الوحي، الذي يصله بالله تعالى، ويوجهه إلى طاعته وعبادته.

وقد سمي الله تعالى الوحي روحاً في عدة آيات منها قوله تعالى ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾^(٣) ومنها أيضاً: ﴿رفيعُ الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾^(٤).

والخلق محتاجون إلى وحي الله تعالى كحاجة أجسادهم إلى أرواحهم، فهو أعظم نعمه سبحانه عليهم، ولهذا ذكره سبحانه في صدر سورة النحل، وهي سورة النعم تنوياً بضرورته وشدة حاجة الناس إليه.

﴿من أمره﴾ أي ينزل الله تعالى الوحي بأمره ومشئته ﴿على من يشاء من عباده﴾ من الذين اصطفاهم سبحانه للنبوة والرسالة، فنزول الوحي منوط بمشيئته سبحانه وحده، وكذلك اصطفاء المنزل عليهم يكون بمشيئته تعالى وحده، ولما اعترض مشركو قريش على إنزال الوحي على النبي ﷺ ﴿وقالوا لولا نزل هذا

(١) الأنعام: الآية ١٢٢.

(٢) الأنفال: الآية ٢٤.

(٣) الشورى: الآية ٥٢.

(٤) غافر: الآية ١٥.

القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴿^(١) ردَّ سبحانه على اعتراضهم فقال: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ ^(٢)﴾.

ورد عليهم أيضاً في موضع آخر فقال: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ ^(٣) فالنبوة اصطفاء وعطاء من الله تعالى، لا تستجلب ولا تكتسب، بل هي محض فضل منه سبحانه، يختار لها من يشاء بحكمته وعلمه كما في قوله تعالى ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير﴾ ^(٤).

والأمر الأساسي الذي يتضمنه الوحي توحيد الله تعالى ﴿أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا﴾ أي أعلموا الناس أنه لا معبود بحق إلا الله تعالى، مع تخويفهم وتحذيرهم من عبادة غيره ﴿فاتقون﴾ [٢] أي: فاتقوا الله يا أيها المستعجلون لعذابه، فإن عذابه قريب وبطشه شديد.

الخلق والحق

فبالوحي يُظهر سبحانه حكمته في خلقه، فما خلقه سبحانه عبثاً ولا باطلاً، بل خلقه جلَّ وعلا بالحق ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ لا بالباطل، فالخلق أساس الخلق، وما أنزل الله الوحي إلا لإحقاق الحق، كما قال تعالى: ﴿وبالخلق أنزلناه وبالخلق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ ^(٥).

وتجريد الخلق عن الحق اتهامٌ لله جلَّ وعلا في حكمته ورحمته، وهو ما نفاه سبحانه عن نفسه في آيات كثيرة منها: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار﴾ ^(٦) ومنها أيضاً: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لaceyين * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا

(١)، (٢) الزخرف: الآيتان ٣١ - ٣٢.

(٣) الأنعام: الآية ١٢٤.

(٤) الحج: الآية ٧٥.

(٥) الإسراء: الآية ١٠٥.

(٦) ص: الآية ٢٧.

إنا كنا فاعلين ﴿١﴾ ومنها أيضاً ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعين﴾ * ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿٢﴾ ونفاه سبحانه هنا أيضاً وعده شركاً يتنزه عنه فقال: ﴿تعالى عما يشركون﴾ [٣].

وانتقلت الآيات من الحديث عن الخلق عموماً إلى خلق الإنسان على وجه الخصوص وبيان ما في خلقه من قدرة عظيمة وحكمة باهرة ﴿خلق الإنسان من نطفة﴾ أي من ماء قليل، وهي مبدأ وجود الإنسان، تتكون من مني الرجل والمرأة، قال تعالى: ﴿ألم يك نطفة من مني يمى﴾ ﴿٣﴾ وقال أيضاً: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ ﴿٤﴾ والنطفة الأمشاج هي البيضة الملقحة وما يحيط بها من سوائل.

﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ [٤] أي: فإذا هو بعد هذه البداية الضعيفة الحقيرة، يخاصم ربه وينكر فضله عليه، ويحسد نعمته.

وكلمة (إذا) الفجائية تدل على أن المتوقع من الإنسان الذي خلقه الله تعالى من النطفة الضعيفة القليلة الحقيرة، أن يُقر بفضل الله تعالى، وينقاد لأمره، ويشكر نعمته، لا أن يكفر ويحسد، ويخاصم في قدرة الله تعالى ويجادل، ففي الآية وصف للإنسان بالوقاحة والتمادي في كفران النعمة ﴿٥﴾.

ومراد الآية الإنسان الكافر الجاحد، لا الإنسان المؤمن المخبت الخاشع، وقد لقي النبي ﷺ من أمثال هذا الإنسان الجاحد عناءً وأذىً، حتى جاء أحدهم بعظم قد رمى وبلي وفته أمام النبي ﷺ وقال: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فأنزل الله رداً عليه قوله الكريم: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم *.

(١) الأنبياء: الآيتان ١٦ - ١٧.

(٢) الدخان: الآيتان ٣٨ - ٣٩.

(٣) القيامة: الآية ٣٧.

(٤) الإنسان: الآية ٢.

(٥) تفسير النسفي ٥٨٣/٣.

قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلقٍ عليمٌ ﴿١﴾.

الأنعام منافع وجمال

وبعد وصف الإنسان بالكفران والجحود، تابعت الآيات تذكيره ببعض نعم الله تعالى عليه ﴿والأنعام خلقها﴾ من أجلكم ولنافعكم، وهي الإبل والبقر والغنم، قال تعالى: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾ (٢) فللأنعام صلة وثيقة بمعيشة الإنسان ومصالحه ﴿لكم فيها دفء﴾ وهو ما يُدفاً به للوقاية من البرد من لباس وفرش وأغطية وغير ذلك، كما سيأتي معنا في قوله تعالى ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾.

﴿ومنافع﴾ أي ولكم في الأنعام منافع كثيرة وكبيرة ستفصلها الآيات ﴿ومنها تأكلون﴾ [٥] أي: ومن لحوم الأنعام تأكلون، أفرد منفعة الأكل بالذكر لأهميتها وكثرة اعتماد الناس عليها.

وتقديم الجار والمجرور أفاد الحصر والتخصيص، إذ الأكل من لحوم الأنعام هو المعتاد المعتمد عليه عند أكثر الناس، وقد يأكل الناس أحياناً من لحوم الحيوانات الأخرى كالطيور والأسماك إلا أن اعتمادهم في الدرجة الأولى على لحوم الأنعام.

وثمة وجه آخر لانتفاع الناس من الأنعام ذكره سبحانه بقوله: ﴿ولكم فيها جمال﴾ أي تتذوقون برؤية الأنعام الجمال، فترتاح نفوسكم، وتشرح صدوركم.

والجمال: ما يُتَجَمَل به ويُتَزَيَّن أو هو الحسن، ويكون في الصورة وتركيب الخلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة والأفعال أيضاً (٣) وجمال الأنعام في صورتها

(١) يس: الآيات ٧٧ - ٧٩، انظر مختصر تفسير ابن كثير ١٧١/٣.

(٢) يس: الآيات ٧١ - ٧٣.

(٣) تفسير القرطبي ٧٠/١٠.

وتكوينها ﴿حين تريحون﴾ أي: عندما تردّونها من مراعيها إلى مرايحها في آخر النهار، فإنها تقبل ملأى البطون، حافلة الضروع، وللإبل رغاء، وللشاة ثغاء، يتردد بين الحقول والبيوت وهي تنادي صغارها.

﴿وحين تسرحون﴾ [٦] أي: وحين تخرجونها في الصباح إلى المراعي. وتقديم الإراحة لأن الجمال فيها أظهر، إذ تقبل حينئذ تتهادى في مشيها، وقد امتلأت بطونها وضروعها، تحمل الخير لأصحابها، فيكون سرورهم برويتها في ذلك الوقت أكثر وأكمل.

رواحل ومراكب

ثم أضافت الآيات بيان منفعة أخرى للإبل على وجه الخصوص، وهي منفعة الحمل والنقل، فلقد كان الناس يعتمدون عليها في أسفارهم، تحملهم مع امتعتهم وبضائعهم ﴿وتحمل أثقالكم﴾ أي: وتحمل الإبل الأحمال الثقيلة التي يثقل عليكم حملها ونقلها، فالإبل هي المرادة بالذكر هنا، فهي التي تحمل الأثقال في الأسفار، وينبغي على الإنسان أن لا يحملها فوق طاقتها، وأن يرفق بها في السير، يريحها في أثنائه، ويهتم بإطعامها وسقيها، فالإسلام دين الإحسان والرحمة، وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السَّنة - القحط - فأسرعوا عليها السير^(١)، وإذا عرَّستم - نزلتم - بالليل فاجتنبوا الطريق فإنها مأوى الهوام بالليل^(٢)».

﴿إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس﴾ أي تحملكم وتحمل أثقالكم إلى بلد لا تصلون إليه بدونها إلا بجهد ومشقة وعناء ﴿إن ربكم لرؤوفٌ رحيم﴾ [٧] بخلق الأنعام لكم، وتسخيرها وتيسير الانتفاع بها.

وانتقلت الآيات من الإبل الرواحل إلى الدواب المراكب، وهي تذكر

(١) كي تصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإمارة رقم ١٩٢٦.

الناس ببعض نعمه سبحانه عليهم: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها﴾ أي: وخلق الخيل والبغال والحمير لأجل أن تركبوها ﴿وزينة﴾ أي: وجعلها زينة. وأشار تغيير نظم اللفظ في الآية إلى أن الزينة بفعل الخالق جلّ وعلا، بينما الركوب بفعل المخلوق، أو لأن الركوب منفعة أساسية مقصودة، بينما التزين منفعة كمالية غير مقصودة^(١).

وتدل الآية على إباحة اتخاذ هذه الحيوانات للزينة والجمال، مع أنه من الكماليات في الحياة، وليس من الضروريات والحاجيات فالتزين والتجمل ضمن الحدود المشروعة أمر جائز مباح، قال تعالى ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة كذلك نُفصل الآيات لقوم يعلمون﴾^(٢).

إعجاز ومعجزة

﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [٨] من وسائل الحمل والنقل والركوب، فقدرته سبحانه طليقة تتسع لما كان ولا يمكن أن يكون، والآية مفتوحة تنسحب على كل الوسائل التي توصل الإنسان إلى صنعها بهداية الله تعالى وتوفيقه، كالسيارات والطائرات والقطارات وغيرها من المراكب التي يمكن أن يتمكن الإنسان من صنعها في المستقبل. فالله سبحانه هو خالقها وحده، لأنه هو الذي أبدع النواميس التي تدير هذه المركبات بمقتضاها، وكذلك هو الذي خلق المواد التي صنعت منها، وهو أيضاً الذي خلق الطاقة التي تحركها وهو سبحانه أيضاً الذي هدى الإنسان إلى صنعها وتركيبها على وفق النواميس التي أبدعها جلّ وعلا وبثها في المكونات.

والإشارة إلى هذه الوسائل بصيغة الإجمال والإبهام دون التصريح بها،

(١) انظر تفسير البضاوي ٥٨٦/٣.

(٢) الأعراف: الآيتان ٣١ - ٣٢.

تدل على حكمته سبحانه ورحمته بعباده، إذ لم يكن شيء من هذه الوسائل في عصر التنزيل، وما كان يخطر على قلب أحد وجود مثلها، والله سبحانه بحكمته ورحمته يخاطب الناس على قدر عقولهم وتصوراتهم، حتى لا يؤثمهم ويفتنهم، فلا يكون منهم اعتراض على كلامه جلّ وعلا ولا تكذيب، ورضي الله عن عبد الله بن مسعود عندما قال: ما أنت محدثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة^(١).

وبوّب الإمام البخاري في صحيحه في كتاب العلم فقال: باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا.

ثم روى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله^(٢).

ومن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم أنه خاطب الناس في عصر التنزيل على قدر فهم عقولهم وتصوراتهم، وفي الوقت نفسه فإن كلماته تتسع لمعانٍ كثيرة متجددة لا يمكن حصرها، بحيث تنسحب على جميع ما كان ويكون من الحقائق، فهو جديد دائماً، لا تنتهي معانيه، ولا يخلق على كثرة الرد.

قال صاحب أضواء البيان: ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يخلق ما لا يعلم المخاطبون وقت نزولها، وأبهم ذلك الذي يخلقه لتعبيره عنه بالموصول، ولم يصرح هنا بشيء منه، ولكن قرينة ذلك في معرض الامتنان بالمركوبات، تدل على أن منه ما هو من المركوبات، وقد شوهذ ذلك في إنعام الله على عباده بمركوبات لم تكن معلومة وقت نزول الآية كالطائرات والقطارات والسيارات، ويؤيد ذلك إشارة النبي ﷺ إلى ذلك في الحديث الصحيح...

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لينزلن ابنُ مريم حكماً عادلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية،

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري ٢٢٥/١ وعزاه إلى صحيح مسلم.

(٢) صحيح البخاري - كتاب العلم رقم ٤٩.

ولتتركن القلاص، فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد»^(١) ومحل الشاهد من هذا الحديث الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام «ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها» فإنه قسم من النبي ﷺ أن ستترك الإبل، فلا يسعى عليها وهذا مشاهد الآن للاستغناء عن ركوبها بالمراكب المذكورة^(٢).

وبهذا ظهر إعجاز في كتاب الله، ومعجزة لرسول الله ﷺ.

وظهر أيضاً أنه لا جمود ولا تحجر في تفكير المسلم وعقيدته.

قال سيد قطب رحمه الله: إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها، ومن ثم يهيئ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال كل ما يتمخض عنه القدرة، ويتمخض عنه العلم، ويتمخض عنه المستقبل، استقباله بالوجدان الديني المتفتح المستعد لتلقي كل جديد في عجائب الخلق والعلم والحياة^(٣).

السيبل القاصد والسُّبُل الجائرة

إن خلق الأنعام والدواب، وتسخيرها للإنسان، من نعم الله الكبيرة على الإنسان، وأعظم منها أنه سبحانه أنزل الكتب وبعث الرسل، لكي يبينوا للناس الطريق المستقيم والمنهج القويم الذي يسعدهم في الدنيا والآخرة، ويوصلهم إلى فضل الله ورحمته، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ أي: إن بيان الطريق الموصل إلى الحق عليه سبحانه، تفضلاً منه على عباده ورحمة بهم، فهو كقوله: ﴿إن علينا للهدى﴾^(٤) فعلى الله سبحانه، كما قال الزجاج تبين الطريق الواضح المستقيم، ودعوة الناس إليه بالحجج والبراهين^(٥) ولهذا أنزل الملائكة بالوحي على الأنبياء والمرسلين كما مر معنا في قوله ﴿ينزل الملائكة

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان رقم ٢٤٣.

(٢) أضواء البيان ٢١٨/٣ - ٢١٩.

(٣) في ظلال القرآن ٢١٦١/٤.

(٤) الليل: الآية ١٢.

(٥) انظر تفسير النسفي ٥٨٧/٣.

بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فأتقون ﴿١﴾ .
﴿ومنها جائز﴾ أي ومن السبل مائل عن الاستقامة، لا يوصل إلى المقصد، مائل عن القصد، وهو الوصول إلى الله تعالى والفوز برضوانه . وتغيير الأسلوب في الآية يدل على أنه ليس بحق على الله تعالى أن يبين طرق الضلالة ^(١) فقد تكفل سبحانه بفضلته ورحمته ببيان الطريق القاصد المستقيم فقط، إذ كل طريق يخالفه طريق جائز، فلا حاجة إلى بيانها وتفصيلها، وهي كثيرة ومتشعبة، فمعرفة طريق الحق تكفي وتغني، وقد حذر سبحانه من الانحراف عن الطريق القاصد المستقيم، فأبى انحراف عنه يوقع في الطرق الجائرة الضالة، كما في قوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ ^(٢) .

من بلاغات القرآن الكريم

وقوله سبحانه ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ من بلاغات القرآن الكريم، ففي كلمة ﴿قصد﴾ كثير من المعاني، هي في الحقيقة ميزات وخصائص للشرعية الإسلامية .

يقال: قصد الطريق قصداً، استقام، وقصد إليه: توجه إليه عامداً وقصد في الأمر: توسط لم يفرط ولم يفرط، وقصد في الحكم: عدل، وقصد في النفقة: لم يسرف ولم يقتّر، وقصد في مشيه: اعتدل فيه . والقاصد في الأسفار: السهل، يقال: بيننا وبين الماء ليلة قاصدة: هيئة السير لا تعب فيها ولا بقاء، والقاصد من السهام: المستوي نحو الرمية، يقال: قصد السهم: أصاب، والقصد: الرشد، يقال: هو على القصد أو على قصد السبيل: إذا كان راشداً ^(٣) .

فالاستقامة والرشد، والتوسط والاعتدال، والسهولة واليسر كلها من

(١) تفسير البضاوي ٥٨٦/٣ .

(٢) الأنعام: الآية ١٥٣ .

(٣) انظر المعجم الوسيط ٧٣٨/٢ .

معاني القصد، وهي من خصائص وميزات الشريعة الإسلامية فالحمد لله الذي جعلنا على السبيل القاصد، وأسأله تعالى الثبات عليه ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ [٩] هداية التوفيق إلى الإيمان والسير على السبيل القاصد، ولكنه سبحانه بحكمته ومشيتته قدّر أن يكون للإنسان اختيار وكسب وإرادة، فبين له السبيل القاصد وحذّره من السبل المخالفة، لأنها سبل جائرة، وأنزل الكتب وبعث الرسل، ومكّنه سبحانه أيضاً من التمييز والاختيار، بما وهب له من وسائل التمكين، وهي العقل والسمع والبصر، وجعله مسئولاً عن كسبه واختياره.

نعم من السماء والأرض

واستمرت الآيات في تذكير الإنسان بنعم الله تعالى عليه، فشرعت في النعم التي جعلها سبحانه في البيئة المحيطة بالإنسان، إذ جعلها سبحانه صالحة لعيش الإنسان، مسخرةً لمنافعه ومصالحه، قال تعالى: ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء﴾ أي الله وحده الذي ينزل الماء من السحاب المرتفع في جو السماء ﴿لكم منه شراب﴾ لكم أيها الناس من هذا الماء شراب تشربونه، ومن المعلوم أن مصادر المياه العذبة من ينابيع وآبار وأنهار وبحيرات تغذيها مياه الأمطار، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾^(١) وقوله أيضاً: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾^(٢).

فما الأمطار ضروري لسقيا الناس، وضروري أيضاً لطعامهم، ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿ومنه شجر فيه تسيمون﴾ [١٠] أي: ومن ماء المطر الذي أنزله سبحانه النبات الذي ترعون فيه أنعامكم ودوابكم، وكذلك ﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات﴾ أي: يخرج الله تعالى

(١) الحجر: الآية ٢٢.

(٢) الزمر: الآية ٢١.

بماء المطر لكم أيها الناس الزرع الذي يعطيكم الحبوب المختلفة، كالحنطة والذرة والشعير، وينبت به أيضاً الزيتون الذي فيه غذاء لكم ودواء، والنخيل التي جعل الله في ثمارها الغذاء، والفاكهة والأعشاب التي تتغذون فيها وتتفكهون، وغيرها من أصناف الفاكهة والثمار الكثيرة ﴿إن في ذلك﴾ الإنزال من السماء والإنبات من الأرض ﴿آية لقوم يتفكرون﴾ [١١] أي: لدليلاً على وجود الله تعالى وجوده وفضله وإنعامه لقوم يتفكرون فيما خلق الله تعالى لهم.

تسخير الليل والنهار

وانتقلت الآيات من عالم النبات إلى عالم الأفلاك ﴿وسخر لكم﴾ أيها الناس ﴿الليل والنهار﴾ الليل لسكونكم وراحتم، والنهار لانتشاركم ونشاطكم ومعاشكم، فبيئة حياتكم منظمة تنظيمًا دقيقاً محكماً متكاملًا، والإنسان يحتاج إلى ظلمة الليل كما يحتاج إلى ضوء النهار وقد كشف العلم الحديث أن لتعاقب الليل والنهار أثراً كبيراً حاسماً في المحافظة على التوازن في بيئة الحياة واستمرارها، وأن له أيضاً ارتباطاً وثيقاً في نمو النبات، وفي المحافظة على النسبة المتوازنة في العناصر المكونة للهواء.

كما أن تعاقب الليل والنهار يخضع لنظام علوي دقيق، أبدعه الخالق العليم الحكيم لكي يتخذ الناس أساساً لضبط حساباتهم ومواعيدهم في شؤون حياتهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾^(١) فالليل والنهار خاضعان لنظام دقيق محكم ثابت، لا يتغير إلا بمشيئة الله تعالى وحده وقدرته، ويبقى الناس مهما أوتوا من قوة وعلم، عاجزين عن أي خرق لهذا النظام أو إحداث أدنى خلل فيه.

تسخير الشمس والقمر والنجوم

وكما سخر الله تعالى الليل والنهار للإنسان، سخر له أيضاً الشمس والقمر

(١) الإسراء: الآية ١٢.

والنجوم، وقال في سياق تذكير الناس ببعض نعمه عليهم ﴿والشمس والقمر﴾ أي سخر الشمس والقمر لمنافعكم، فجعل الشمس مصدراً أساسياً للضوء والحرارة، وجعل القمر مصدراً للنور. فَصَّلَ ذلك سبحانه في موضع آخر فقال: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾^(١).

وجعل سبحانه الشمس بعيدة عن الأرض بُعداً دقيقاً محكماً، بحيث لا يصل إلى الأرض من ضوئها وحرارتها إلا مقدار ما يحتاجه الناس في حياتهم ومعاشهم، وأي زيادة أو نقص في هذا المقدار الموزون يجعل بيئة الحياة في الأرض غير صالحة لاستمرار الحياة فيها، فكل شيء أبدعه الله تعالى موزون بميزان العلم والحكمة، كما قال تعالى في موضع آخر ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾^(٢).

﴿والنجوم مسخرات بأمره﴾ أي والنجوم بأجرامها الكبيرة وأعدادها الكثيرة، مذلات مقهورات تحت قهره جلّ وعلا وإرادته، والعدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية يفيد الدوام والاستمرار، فالنجوم خاضعة دائماً لإرادة الله تعالى وقدرته، ولا تأثير لها في غيرها من المخلوقات والحوادث إلا بمشيئة الله وقدرته، وفي هذا ردٌّ على كل من يعتقد أن للنجوم تأثيراً في الحوادث الأرضية، فهي مسخرة لفائدة الناس، وفي قراءة ﴿والنجوم مسخرات بأمره﴾ أي وجعل النجوم مسخرات من أجلكم ولمنافعكم. وسيأتي معنا في قوله تعالى ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ بعض أوجه انتفاع الناس بالنجوم.

﴿إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾ [١٢] أي: يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحاً.

(١) يونس: الآية ٥.

(٢) الحجر: الآية ٢١ وانظر تفصيل الموضوع في كتاب الإنسان بين الأجل والأمل في سورة الحجر.

ويلاحظ أنه سبحانه ختم الآية السابقة بقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يتدبرون ويتأملون في هذه الظواهر الكونية المذكورة في الآية، وهي فعلاً تحتاج إلى شيء من التفكير والتدبر لكي ينكشف للناس ارتباط إنزال المطر بإخراج النباتات المتنوعة.

بينما ختم سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لأن الظواهر الكونية في هذه الآيات، دلائل القدرة الباهرة فيها أكثر وضوحاً وبروزاً، فلا حاجة للتدبر والتفكير في إدراكها، يحتاج الإنسان فقط إلى أن يستعمل عقله بموضوعية وتجرد ليدرك ما فيها من أدلة واضحة تدل على عظمة الخالق وقدرته وحكمته.

معارض للفن والجمال في الأرض

وعادت الآيات إلى الأرض مرة ثانية لتذكر الإنسان بلون آخر من النعم، سبق للآيات أن ذكرت مثله في الأنعام ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

فالجمال ظاهرة مبثوثة في كل المخلوقات، تدل على وجوده سبحانه وقدرته وحكمته، كما تدل على فضله ورحمته.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي واذكروا ما خلق الله لكم في الأرض من الأجناس والأنواع ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ وهي مع كثرتها مختلفة في الألوان والأشكال والأحجام، تظهر لكم في غاية الحسن والجمال، قدمت لكم في إطار جميل ولوحات منسقة لكي تنتفعوا بها وتذوقوا جمالها وحسنها، فتشرح صدوركم، ويزداد سروركم، فما أعظم فضل الله تعالى عليكم!!! جعل الله في الكون المحيط بكم معارض كثيرة للفن والجمال، فيها لوحات فنية في غاية الحسن والتنسيق، عرضت الآيات الكريمة بعضها في عدة مواضع، منها: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾^(١) ومنها أيضاً:

(١) الحج: الآية ٥.

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها ومن الجبال جددٌ بيضٌ وحمرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيزٌ غفور﴾^(١).

والجمال يتذوقه الإنسان بفطرته، فلا يحتاج معه إلى استعمال فكر وعقل ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله ﴿إن في ذلك﴾ الجمال والحسن والتناسق والانسجام بين الألوان والأشكال ﴿آية لقوم يذكرون﴾ [١٣] يتعظون ويعتبرون.

تسخير البحر

وفي البحر أيضاً منافع كبيرة ومعارض فنية جميلة رائعة، ﴿وهو﴾ وحده سبحانه ﴿الذي سخر البحر﴾ هذا المخلوق الكبير العظيم الذي يغطي أكثر الأرض ﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ من أسماكها الكثيرة المتنوعة، وصفه بالطراوة لسهولة أكله ولطافته، وفيه إشارة إلى المبادرة إلى أكله فور استخراجه من البحر، فمن المعلوم أن السمك الطازج ألذ مذاقاً ونكهة من غير الطازج، ولهذا تقام أفخم مطاعم السمك بجانب أماكن صيده ترغيباً للناس بلحم السمك الطازج الطري.

والبحر مصدر كبير من مصادر طعام الإنسان، زادت أهميته في العصر الحاضر بسبب تطور وسائل الصيد وتقدمها، وبسبب شره الناس وشدة طمعهم وجشعهم، حتى أصبحوا يتنافسون على مصائد السمك في لجج البحار، ويحشدون الجيوش، وتشتعل الحروب، وقد ذكر سبحانه البحر في عدة مواضع في معرض الامتنان على الناس بتسخيره لهم، أو في سياق الأدلة الدالة على قدرته وعظمته سبحانه. كقوله تعالى: ﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾^(٢).

(١) فاطر: الآيتان ٢٧ - ٢٨.

(٢) الجاثية: الآية ١٢.

وقوله أيضاً: ﴿وما يستوي البحران هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلَّكم تشكرون﴾^(١).

ومن منافع البحر أيضاً الدرر التي يستخرجونها من أعماقه لتكون حلية وزينة، ولهذا قال تعالى ﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾ كاللؤلؤ والمرجان المذكورين في قوله سبحانه: ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ بينهما برزخٌ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يخرج منها اللؤلؤ والمرجان﴾^(٢).

وإلى جانب كل هذه المنافع جمال البحر الآسر، وحسنه الباهر، ففيه لوحات جمالية رائعة تأسر العين، وتبهر القلب، ويزداد البحر جمالاً وحسناً بالسفن وهي تتهادى بين أمواجه، تشق بصدورها صفحة الماء الممتدة على مدى امتداد النظر ﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾ دونك يا أيها الإنسان هذه اللوحة الفنية الرائعة، لترى فيها السفن بأحجامها المختلفة جارية في البحر، وقد خلفت وراءها على صفحته الزرقاء خطوطاً طويلة للمياه البيضاء المديدة الهائجة.

ومن وجوه انتفاع الناس في البحر الانتقال والسفر بواسطته بين البلاد البعيدة، وبين القارات المنفصلة عن بعضها بالبحار الكبيرة المحيطة، وقد يسر الله تعالى للناس صنع السفن والمراكب التي يسافرون عليها في البحار للتجارة والكسب والصيد وغيرها من المقاصد ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي سخر الله لكم ركوب البحر لكي تطلبوا الرزق من فضله تعالى وإحسانه ﴿ولعلَّكم تشكرون﴾ [١٤] الله تعالى على هذه النعم الكبيرة.

الجبال أوتاد الأرض

وانتقلت الآيات الكريمة من أعماق البحار وما فيها إلى ذرى الجبال وقممها وجذورها، فبينت فضل الله تعالى على الإنسان بتثبيت الأرض بالجبال،

(١) فاطر: الآية ١٢.

(٢) الرحمن: الآيات ١٩ - ٢٢.

فلا تتزلزل ولا تضطرب، لكي يستطيع الإنسان أن يعيش عليها بأمان واطمئنان: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي ألقى سبحانه في الأرض جبلاً ثقيلاً ثابتة ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لئلا تضطرب بكم.

ومن المعلوم أن باطن الأرض الذي تستند عليه قشرتها سائل ملتهب، والحمم التي تقذفها البراكين يؤكد ذلك، وهذا يجعل سطح الأرض مضطرباً منزلقاً غير مستقر، وقد ذكر المفسرون أنه سبحانه لما خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال^(١).

قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهُ﴾^(٢) فهي بالنسبة لسطح الأرض كالأوتاد وهو ما صرح به تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً﴾ والجبال أوتاداً^(٣). فللجبال دور كبير في تثبيت الأرض، حتى قال بعض المفسرين: الجبال بالنسبة للأرض كالعظام للجسم، والأرض بلا جبال كاللحم بلا عظام^(٤).

وقد أثبت علماء طبقات الأرض أن للجبال جذوراً ممتدة في داخل الأرض، والعجيب أن العلامة البيضاوي رحمه الله، وهو من علماء القرن السابع الهجري المتوفى سنة ٦٨٥ هـ، أشار إلى هذه الحقيقة بقوله: فلما خلقت الجبال على وجهها تفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز، فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة^(٥).

وكلمة ﴿أَلْقَى﴾ تدل على عظمته تعالى وقدرته، فجبال الأرض كلها بأثقالها وصخورها شيء يلقي على الأرض إلقاءً، فما أعظم قدرته جلّ وعلا!!!.

(١) انظر تفسير البيضاوي وتفسير الخازن وتفسير النسفي ٥٩٠/٣ وقد ذكره ابن كثير في تفسيره وعزاه إلى الحسن البصري. مختصر ابن كثير ٣٢٦/٢.

(٢) النزاعات: الآية ٣٢.

(٣) النبأ: الآيتان ٦ - ٧.

(٤) تنوير الأذهان ٣٠٢/٢.

(٥) تفسير البيضاوي ٥٩٠/٣.

ثم ذكر سبحانه نعمته على الإنسان بالأنهار ﴿وأنهاراً﴾ أي وجعل في الأرض أنهاراً تحمل الماء العذب لسقياكم وسقيا أنعامكم ومزارعكم.

وللأنهار اتصال وثيق بالجبال، لأنها تستمد ماءها من الجبال، إذ هي مخازن الماء بتقدير الله تعالى، وكثيراً ما تذكر الأنهار والمياه العذبة مع الجبال، كما ذكرت هنا، وفي قوله سبحانه أيضاً: ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسفيناكم ماءً فراتاً﴾^(١).

علامات في النهار والليل

ومن رحمته سبحانه بالناس أنه جعل بين الجبال فجاجاً وأودية لكي تكون للناس بمثابة طرقات وممرات، فلا يضطرون إلى صعود الجبال الشاهقة في أسفارهم وتنقلاتهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وسبلاً﴾ أي جعل بين الجبال طرقاً تسلكونها، فتصلون إلى مقاصدكم بسهولة ويسر، كما في قوله سبحانه ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾^(٢).

إن هذه الوديان والفجاج بين الجبال مقدرة بتقدير الحكيم العليم، بحيث تكون طرقاً تصل بين المناطق التي قطعتها الجبال عن بعضها، يسلكها الناس إلى مقاصدهم فلا يضلون ولا يتيهون ﴿لعلكم تهتدون﴾ [١٥] بتلك السبل إلى مقاصدكم وتصلون إلى بغيتكم، فاعرفوا فضل الله تعالى عليكم واشكروه على ما أعطاكم.

ومن فوائد الجبال والوديان والأنهار أيضاً أنها علامات ترشد الناس إلى الطرق والجهات، فهي معالم على الطرق ترشد المسافرين ﴿وعلامات﴾ أي وجعلها لكم علامات تهتدون بها في أسفاركم، وهي علامات النهار، وقد جعل سبحانه بفضله لليل علامات أيضاً، وهي النجوم، ولهذا قال سبحانه:

(١) المرسلات: الآية ٢٧.

(٢) طه: الآية ٥٣.

﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ [١٦] فللنجوم مواقع خاصة في جهة السماء يهتدي بها المسافرون في البر والبحر، قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾^(١) ومواقع هذه النجوم ثابتة لا تتغير، مما يدل على أن لها نظاماً يحكمها ويقهرها، أبدعه الخالق العليم الحكيم جلّ وعلا، ولهذا أقسم سبحانه بمواقع النجوم لما فيها من دلالة كبيرة على عظمته وقدرته ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾^(٢).

عجز وقصور

وتوجهت الآيات بعد هذا العرض لبعض نعم الله تعالى إلى المشركين بهذا السؤال، تنكر عليهم به شركهم وكفرهم وإعراضهم عن توحيده جلّ وعلا وطاعته وعبادته ﴿أفمن يخلق﴾ وهو الله سبحانه المتفرد وحده بالخلق والتدبير الذي قال: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾^(٣) فلا خالق سواه جلّ وعلا.

﴿كمن لا يخلق﴾ شيئاً بسبب عجزه وضعفه، فكيف يجعلونه في استحقاق الطاعة والعبادة كالخالق المنعم المتفضل عليكم بهذه النعم الجليلة الكثيرة؟ ﴿أفلا تذكرون﴾ [١٧] هذه الحقيقة الظاهرة التي لا تحتاج إلى إعمال عقل وفكر؟

وتحولت الآيات من أسلوب الإنكار إلى أسلوب التقرير والتحدي تبيين فضل الله تعالى عليهم، وعجزهم عن إحصاء وحصر نعم الله تعالى عليهم: ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها﴾ أي لا تضبطوا عددها لسبيين: أولها كثرتها، وثانيهما: عجزكم وضعفكم وجهلكم، فالأول نابع من النعم نفسها، والثاني نابع من المنعم عليهم.

(١) الأنعام: الآية ٩٧.

(٢) الواقعة: الآيتان ٧٥ - ٧٦.

(٣) الزمر: الآية ٦٢.

ولا يزال الناس منذ فجر وجودهم وحتى العصر الحاضر، عاجزين عن حصر نعم الله تعالى وإحصائها وضبطها بعدد معين، والعصر الحاضر عصر الحاسبات الآلية التي لها قدرة على استيعاب أعداد كبيرة من المعلومات، ومع ذلك فالناس فيه يجهلون أكثر مما يعلمون، وثمة مجالات كثيرة في أنفسهم وفي الكون المحيط بهم لم تبلغه معارفهم، ولم تتصوره عقولهم، لا يزالون كما قال تعالى: ﴿وما أوتيتهم من العلم إلا قليلاً﴾^(١). وثمة أيضاً نعم كثيرة خفية تتوقف عليها حياة الناس واستمرارها، لا يعلمها الناس، أشار إليها سبحانه بقوله الكريم: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾^(٢).

وما دمت عاجزين عن إحصاء نعم الله تعالى عليكم، فأنتم أعجز عن القيام بحق شكرها، فحقه سبحانه عليكم كبير وعظيم، فاعبدوه وأطيعوه وأنتم مقرون بفضلته جلّ وعلا، ومعترفون بتقصيركم وعجزكم عن حق شكره سبحانه، واسألوه أن يتجاوز عن تقصيركم ويرحمكم ﴿إن الله لغفورٌ رحيم﴾ [١٨].

ولهذا كان النبي ﷺ يقوم من الليل في عبادته سبحانه ومناجاته حتى تتشقق قدماه الشريفتان، ويرى نفسه مقصراً في حق شكره سبحانه، ففي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً»^(٣).

قال العلماء: إنما ألزم الأنبياء أنفسهم بشدة الخوف، لعلمهم بعظيم نعمة

(١) الإسراء: الآية ٨٥.

(٢) لقمان: الآية ٢٠.

(٣) صحيح البخاري - كتاب التفسير - رقم ٤٨٣٧.

الله تعالى عليهم، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها، فبذلوا مجهودهم في عبادته، ليؤدوا بعض شكره، مع أن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد^(١).

ثم أكد سبحانه إحاطة علمه بكل أحوال الناس ظاهرها وباطنها فهم لا يعلمون نعمه سبحانه عليهم، وهو جلّ جلاله أحاط بكل شيء علماً ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ [١٩] لا تخفى عليه خافية.

(١) فتح الباري ١٥/٣.

الفصل الثاني

جُحُودٌ وَعِنَادٌ وَمُفَارَقَاتٌ مُسْتَنَكِرَةٌ

حملة على الأصنام

وبعد أن عرضت الآيات هذه المجموعة من نعم الله تعالى على الإنسان، شرعت في بيان موقفه من خالقها جلّ وعلا، أكثرهم وقف موقف الجحود والعناد، فبدل أن يتوجهوا إلى الله تعالى بالشكر والطاعة والعبادة، جحدوا فضله وكفروا بنعمته، فعبدوا غيره وأشركوا به سبحانه آلهة مزعومة ظاهرة العجز والضعف ﴿والذين يدعون من دون الله﴾ كالأصنام والأوثان ﴿لا يخلقون شيئاً﴾ بسبب ضعفهم وعجزهم ﴿وهم يُخلَقون﴾ [٢٠] محتاجون في وجودهم إلى خالقهم، الذي أخرجهم من العدم إلى الوجود.

فالإله الذي يستحق العبادة، يجب أن يكون واجب الوجود أزلاً وأبداً، موجوداً بنفسه، ولا يستمد وجوده من غيره.

وهذه الآلهة المزعومة أيضاً ﴿أموات﴾ جمادات ميتة، لا حياة فيها ولا إحساس ولا شعور.

﴿غير أحياء﴾ فلو كانوا آلهة على الحقيقة، لكانوا أحياء حياة حقيقية غير مكتسبة، وغير مسبوقة بالعدم، ولا يلحقها موت وفناء، فالإله الحق حي لا يموت، قال تعالى: ﴿هو الحيُّ لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾^(١).

وقال أيضاً: ﴿هو يحيي ويميت وإليه ترجعون﴾^(٢) فالحياة والموت بيده سبحانه، وبمشيئته وقدرته، كما أنه وحده المنعم المتفضل، فكيف تعرضون عن

(١) غافر: الآية ٦٥.

(٢) يونس: الآية ٥٦.

عبادته وطاعته، وتعبدون أصناماً لا تضر ولا تنفع عاجزة جامدة!!؟ فما أشد عنادكم! وما أعظم جحودكم! وما أصدق قول الله تعالى فيكم: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعِدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(١).

والإله الحق ينبغي أن يكون عالماً بالغيوب، قادراً على بعث الناس يوم القيامة، بينما هذه الآلهة المزعومة جاهلة عاجزة ﴿وما يشعرون أياً يبعثون﴾ [٢١] أي: لا يعلمون متى يبعثون.

حاملو الأوزار

وبعد هذه الحملة على الأصنام، أتبعها الآيات بحملة أخرى على المشركين من عبدتها، فوجهت الخطاب إليهم تفرعهم وتوبخهم وتقرر حقيقة التوحيد الكبرى التي يجب عليهم الإقرار بها والتسليم لها ﴿إلهكم إله واحد﴾ شتم أم أبيتم، فهو خالقكم ومالك أمركم، فهو وحده المستحق للعبادة والطاعة.

﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وما فيها من بعث وحساب، وعقاب وثواب ﴿قلوبهم منكراً﴾ جاحدة للحق ﴿وهم مستكبرون﴾ [٢٢] أي: وشأنهم التكبر والتجبر، وهو السبب الذي يجعلهم ينكرون الحق ويجحدونه، ومثل هؤلاء لا يجدي معهم إلا أسلوب الوعيد والتهديد ﴿لا جرم﴾ حقاً ﴿أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ فيجازيهم على عملهم وكفرهم أشد الجزاء ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ [٢٣] المتصفين بصفة التكبر، فضلاً عن الذين استكبروا عن عبادته وطاعته، وجحدوا فضله ونعمه وإحسانه.

ومن صور جحودهم وتكبرهم ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم﴾ الذي خلقكم ورباكم بفضله وإحسانه بما أنعم عليكم ﴿قالوا﴾ بوقاحة وجرأة على الله تعالى، وعلى كلامه المنزل على رسوله ﷺ ﴿أساطير الأولين﴾ [٢٤] أي: هو أكاذيب وأباطيل كان الأقدمون يرددونها، وقد حكى الله تعالى عنهم مثل هذا

(١) إبراهيم: الآية ٣٤.

القول في آيات كثيرة، منها: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً﴾^(١) ومنها أيضاً: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾^(٢).

بهذه الأكاذيب والافتراءات على كلام الله تعالى كانوا يصرفون الناس عن سماع القرآن الكريم، ويصدونهم عن دين الله تعالى، فعليهم يوم القيامة أن يتحملوا مسؤولية ضلالتهم وإضلالهم لغيرهم.

﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة﴾ فسيجازيهم سبحانه على جميع ذنوبهم، فلا يغفر لهم شيئاً منها، بسبب رسوخهم بالكفر والضلال ودعوتهم إليه، وصددهم عن الحق.

﴿ومن أوزار الذين يضلوهم بغير علم﴾ وسيجازيهم سبحانه أيضاً عن بعض ذنوب الذين اتبعوهم من عامة الكفار، الذين استغلوا جهلهم فأضلّوهم وحسنوا لهم السير في طرق الضلال، قال تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾^(٣).

وهذا لا يعني إفلات عامة الكفار ونجاتهم من المسؤولية عن كفرهم وضلالتهم، فهم مسؤولون لأنه سبحانه زودهم بأهلية التمييز والنظر، كما أنه سبحانه أرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب ليبين لهم طريق الحق القاصد الذي يجب عليهم أن يسيروا فيه، فلا عذر لهم، وجهلهم لا يخلصهم من المسؤولية، ولا ينقص آثامهم، قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٤).

﴿ألا ساء ما يزرّون﴾ [٢٥] أي: ألا بش ما يحملون.

(١) الفرقان: الآية ٥.

(٢) الأنفال: الآية ٣١.

(٣) العنكبوت: الآية ١٣.

(٤) صحيح مسلم - كتاب العلم - رقم ٢٦٧٤.

الواقعون في شر أعمالهم

ثم دعتهم الآيات إلى الاعتبار بمصير الأمم الهالكة قبلهم:

﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ أي من قبل مشركي مكة المكرمة، والمكر الاحتيال والخديعة لإبطال دعوة الأنبياء والمرسلين، فأبطل سبحانه مكرهم، وأحبط كيدهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم.

﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ أي نقض الله مكرهم من قواعده وأساسه الذي بني عليه ﴿فخرَّ عليهم السقف من فوقهم﴾ فسقط عليهم السقف وهم تحته، فوقعوا في شر أعمالهم، ورد الله تعالى مكرهم عليهم، كما قال: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾^(١).

وقال أيضاً: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين^(٢).

ودل قوله تعالى ﴿من فوقهم﴾ على أنهم كانوا تحته، والعرب تقول: خرَّ علينا سقف، ووقع علينا حائط، إذا كان القائل يملكه وإن لم يكن وقع عليه^(٣).

﴿وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ [٢٦] أي: أتاهم العذاب والهلاك في الدنيا من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون، فقدّر الله تعالى لا يُرد، ومشيتته نافذة في ذرات الموجودات، ومن مأمنه يؤتى الحذر، فلا تغترّ أيها المتكبر الظالم بقوتك وبأسك ومالك وسلطانك، ومن سره زمن ساءته أزمان.

مشوى المتكبرين

وهذا في الدنيا ﴿ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ أي يعذبهم بعذاب يذلهم فيه، إذ الخزي هو العذاب مع الذلة والهوان.

(١) فاطر: الآية ٤٣.

(٢) النمل: الآيتان ٥٠ - ٥١.

(٣) انظر فتح القدير ١٥٧/٣.

﴿ويقول أين شركائي﴾ في زعمكم واعتقادكم ﴿الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ أي كنتم تعادون الأنبياء والمرسلين والمؤمنين من أجلهم، فما لهم لا يحضرون معكم ليدفعوا عنكم العذاب والهوان؟! فهو كقوله سبحانه: ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾^(١).

وقوله أيضاً: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون * من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون؟^(٢).

ولا سبيل لهم في مثل هذا الموقف إلا السكوت، وهو إقرار ضمني على أنفسهم بما كانوا عليه من كفر وفجور، وعناد وكبر، صمتوا والأسف والندم يحرق قلوبهم، وتكلم المؤمنون:

﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ وهو الوحي الذي أنزله الله على رسله، أي قال الذين انتفعوا به، فعبدوا الله وحده وأطاعوه، والعلم يدعو للإيمان، وهو من أشرف ما يتصف به الإنسان، ووصف المؤمنون به إجلالاً لهم وتكريماً، لكونه منشأ كل فضيلة^(٣).

﴿إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين﴾ [٢٧] ففي هذا اليوم يظهر أهل الحق ويكرمون، ويُذَلُّ أهل الباطل ويهانون بالخزي والسوء ويبدأ عذابهم وهوانهم من حين مفارقتهم للدنيا، عندما تأتيهم الملائكة لتقبض أرواحهم ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي تحضر إليهم ملائكة الموت، وهم مصرون على ظلم أنفسهم بالكفر والشرك، فالقوم يصرون على جحودهم وعنادهم حتى الموت.

﴿فألقوا السلم﴾ أي أظهروا الجزع والخوف حين عاينوا الموت، فاستسلموا وانقادوا، وذلوا ولانوا، وانسلخوا عن تكبرهم وعنادهم، وقالوا:

(١) القصص: الآية ٦٢.

(٢) الشعراء: الآيات ٩١ - ٩٣.

(٣) انظر نظم الدرر ١٤/١٤٣.

﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ نفوا عن أنفسهم أي عمل سيء كالكفر والجحود، وترد عليهم الملائكة قائلين:

﴿بلى﴾ وهي هنا لنفي النفي، فما نفوه عن أنفسهم من عمل السوء، منفي ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ [٢٨] فلا فائدة من الإنكار، فالله سبحانه عليم بكل أعمالكم.

تقول الملائكة ذلك لهم، وهم يضربونهم ويعذبونهم، بين سبحانه ذلك في موضع آخر، فقال: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾^(١).

ويقال لهم يوم القيامة: ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين﴾ [٢٩] عن الإيمان، الجاحدين فضل الله تعالى عليهم.

والمثوى: المأوى ومكان الإقامة، وجهنم شر مثوى ومأوى للمتكبرين.

مقارنة

عودنا سبحانه في كتابه العزيز على المقارنة بين أحوال الكافرين وأحوال المؤمنين، وهو أسلوب تربوي رائع، ففي مقابل ما مر معنا من قوله تعالى في المستكبرين الجاحدين ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾ قال سبحانه هنا: ﴿وقيل للذين اتقوا﴾ ربهم فعظموه وعبدوه وأطاعوه ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ أي أنزل ربنا خيراً، خيراً يسعد الإنسان إن تمسك به في الدنيا والآخرة.

واتفق القراء على نصب ﴿خيراً﴾ ورفع ﴿أساطير الأولين﴾ فظهر بذلك الفرق بين جواب المقربين والجاحدين^(٢) ففي نصب ﴿خيراً﴾ دليل على أنهم لم يتلعثموا في الجواب، فجاء جوابهم مطابقاً تماماً للسؤال، ماذا أنزل ربكم؟ قالوا أنزل خيراً.

(١) الأنفال: الآية ٥٠.

(٢) نظم الدرر ١٤/١٤٦.

وأما الجاحدون فأنكروا الإنزال، وعدلوا عن الجواب، فقالوا: أساطير الأولين.

وفي مقابل مثوى المتكبرين، قال سبحانه يبين مصير المؤمنين وفضله عليهم ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وهي التوفيق والنصر والرزق الطيب الحسن ﴿وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي ثوابهم في الآخرة خير. . مما أعطوا في الدنيا ﴿وَلَنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [٣٠] وهي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يقيمون فيها إقامة دائمة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لهم فيها ما يشاءون ﴿دُونَ تَحْدِيدٍ أَوْ تَقْيِيدٍ﴾ لمشيئتهم، يعطى المؤمنون في الجنة كل ما يشاءون وزيادة على ما يشاءون، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾^(١).

﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [٣١] أي: هكذا يتفضل الله سبحانه على المتقين في دار رحمته وكرامته، في الجنة.

وفي مقابل قوله سبحانه في الكافرين الجاحدين: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ قال سبحانه في المؤمنين المتقين:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي يموتون وهم على أظهر حال وأزكاها، طاهرين من الشرك والكفر والفجور والظلم، أو أحوالهم عند الموت طيبة سهلة، إذ يبشرون عند قبض أرواحهم بالرضوان والجنة والكرامة، فيحصل لهم الفرح والسرور والابتهاج، فيسهل عليهم قبض أرواحهم، ويطيب لهم الموت على هذه الحالة^(٢) كما جاء في الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله، أحب لقاء الله، ومن كره لقاء الله، كره لقاء الله» فقلت: يا نبي الله أكرهية الموت؟ فكلنا يكره الموت، فقال: «ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته، أحب لقاء الله، فأحب لقاء الله لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه، كره

(١) ق: الآية ٣٥.

(٢) انظر تفسير الخازن ٥٩٩/٣.

لقاء الله، وكره الله لقاءه»^(١) ﴿يقولون﴾ أي الملائكة للمؤمنين ﴿سلام عليكم﴾ من الله تعالى، أو منا ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ [٣٢] أي: بسبب ما كنتم تعملون من توحيد الله وعبادته وطاعته وشكره وصلتم إلى فضله ورحمته وجنته.

الظالمون لأنفسهم

وتساءلت الآيات بعد هذه المقارنة سؤال المتعجب ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ أي ماذا ينتظر هؤلاء الكفار؟! لماذا يصرون على الكفر والجحود، ولا يبادرون إلى الإيمان؟! هل ينتظرون أن تأتي الملائكة لتقبض أرواحهم، أو يأتي أمر ربك المقدر لقيام الساعة، وكلاهما أمر مقدر محتم لا بد منه، كما مر معنا في صدر السورة ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

وكان الآيات بهذا السؤال ترد على استعجالهم للعذاب ولقيام الساعة استهزاءً وإنكاراً، فعليهم أن يبادروا إلى الإيمان لإنقاذ أنفسهم بدل أن يستعجلوا العذاب، فهو أمر واقع لا محالة، وشأنهم في استعجال العذاب ليس بدعاً، فهو شأن جميع المعاندين المكذبين من قبلهم ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ حتى أصابهم الهلاك، ونزل بهم العذاب ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [٣٣] بإصرارهم على الكفر، والإعراض عن الإيمان.

﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾ أي جزاء سيئات ما عملوا بكسبهم واختيارهم ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ [٣٤] أي: وأحاط بهم إحاطة كاملة العذاب الذي كانوا يستهزئون به، ويستجعلونه سخريّة وإنكاراً.

المحتجون بالقدر

ومن صور عنادهم وجحودهم أيضاً أنهم أنكروا ما أرسل الله إليهم من الرسل وما أنزل عليهم من الكتب، وقالوا متجاهلين متغافلين ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن

(١) صحيح مسلم - كتاب الذكر ٢٦٨٤.

ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء ﴿٣٥﴾ وكلامهم هذا حق ، ولو قالوه اعتقاداً لكان صواباً منهم ، لا يرد عليهم ، فكل شيء بمشيئته سبحانه وإرادته ، ولكنهم قالوه لإنكار بعثة الأنبياء والمرسلين ، ومضمون كلامهم أنه سبحانه لو كان كارهاً لما فعلنا نحن وآباؤنا من عبادة الأصنام ، وتحريم ما لم يجرمه الله علينا كالسوائب والبحائر وغير ذلك ، لأنكره علينا ، وما أمكننا منه .

ورد سبحانه عليهم بقوله ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ قالوا مثل قولهم ، واحتجوا على كفرهم وفجورهم بالقدر كما احتج هؤلاء .

﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ [٣٥] أي ليس الأمر كما تزعمون أنه سبحانه لم ينكر عليكم كفركم وفجوركم ، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ، ونهاكم عنه أكد النبي ، وبعث في كل أمة رسولاً^(١) كلفهم بإبلاغ الأمم رسالة ربهم التي نهى فيها عن الشرك والكفر ، وبين فيها ما أحل لهم وما حرم عليهم ، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك :

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾ وهو أمر أكده سبحانه في آيات كثيرة ، منها قوله ﴿ولكل قوم هادٍ﴾^(٢) وقوله أيضاً : ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾^(٣) .

وكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده ، ونهوا عن عبادة غيره ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ أي أمروا الناس بعبادة الله وحده واجتناب عبادة الطاغوت ، وهو اسم يطلق على كل معبود من دون الله تعالى ، كالأصنام والشياطين والكهان والمتكبرين والمتجبرين الفراعنة المستبدين الذين يرفعون أنفسهم إلى مقام الحاكمية والتشريع .

والله سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك ، ولا يرضى لعباده الشرك والكفر أبداً ، قال سبحانه : ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر

(١) انظر مختصر ابن كثير ٣٣٠/٢ .

(٢) الرعد : الآية ٧ .

(٣) فاطر : الآية ٢٤ .

وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرةٌ وزرٌ أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور ﴿١﴾ .

والناس مكلفون بأن تكون أعمالهم وأقوالهم موافقة لأمره سبحانه وشرعه، لا لإرادته سبحانه، وإرادته غيب عنا لا نعلمها حتى يقع مراده سبحانه، أما أمره ونهيّه فقد أعلمنا به بواسطة أنبيائه وكتبه، ولهذا قال سبحانه في معرض الرد على المحتجين بالقدر: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تحصبون﴾ * قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴿٢﴾ .

فالله سبحانه قادر على هداية جميع الناس، ولكنه سبحانه قدّر أن يكون لهم كسب واختيار ومشية ﴿فمنهم من هدى الله﴾ أي وفقهم لاختيار طريق الإيمان واتباع الرسل ﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ أي ومنهم من لزمته الضلالة لاختياره إياها وتمسكه بها.

ويؤكد وجود الكسب والاختيار عند الناس، دعوته سبحانه لهم إلى النظر والاعتبار بمصير المعاندين المصيرين على الكفر من قبلهم ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [٣٦] لعلكم تعتبرون بمصيرهم.

ويؤكد أيضاً إرادتهم واختيارهم أن النبي ﷺ كان شديد الحرص على إيمانهم وهدايتهم، واجتهد كل الاجتهاد في تبليغهم ودعوتهم، ومع ذلك بقي كثير منهم مصيرين على الكفر، و متمسكين بالشرك، فما كان له ﷺ أن يجبرهم على الإيمان، ولا يستطيع أن يجعلهم ينسلخون عن اختيارهم وإرادتهم التي جعلها الله تعالى فيهم، حتى قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل﴾ أي إن الله لا يهدي من حكم بضلاله بسبب سوء كسبه واختياره ﴿وما لهم من ناصرين﴾ [٣٧] أي: ما لهم يوم القيامة من ينصرهم ويدفع عنهم العذاب.

(١) الزمر: الآية ٧.

(٢) الأنعام: الآيتان ١٤٨ - ١٤٩.

إنكارهم يوم القيامة

ومن صور عنادهم وجحودهم أيضاً إنكارهم حقيقة كبرى، من أعظم الحقائق ظهوراً وقوة، وهي يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء.

﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي اجتهدوا في الحلف ﴿لا يبعث الله من يموت﴾ فكذبهم سبحانه ورد عليهم قائلًا ﴿بلى﴾ نفى لنفيهم البعث، بل يبعثهم الله تعالى ﴿وعداً عليه حقاً﴾ ثابتاً لا يتخلف ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [٣٨] أن وعده سبحانه حق ثابت لا يتخلف، أو لا يعلمون أنهم بعد الموت يبعثون ويحاسبون، فهو كما قال في موضع آخر: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وري لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾^(١).

ثم بين سبحانه الحكمة من الحساب يوم القيامة فقال: ﴿ليبين لهم الذي يختلفون فيه﴾ أي ليحكم سبحانه بين الناس في كل شيء اختلفوا فيه، فيميز المحق من المبطل ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ [٣٩] في قولهم: لا يبعث الله من يموت، وفي اتهامهم الله تعالى بالعجز عن إعادتهم إلى الحياة بعد الموت، فله سبحانه كمال القدرة، وتمام الإرادة النافذة في كل شيء ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [٤٠] كما أَرادَه سبحانه، فأمره التكويني للأشياء واحد لا يتكرر كما قال سبحانه ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾^(٢) وهو سبحانه قادر على أن يخلق المكونات كلها بأمر تكويني واحد، كما قال جلَّ شأنه: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفسٍ واحدة إن الله سميع بصير﴾^(٣) فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه الواحد القهار العظيم الجبار، الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله غيره ولا رب سواه^(٤).

(١) التغابن: الآية ٧.

(٢) القمر: الآية ٥٠.

(٣) لقمان: الآية ٢٨.

(٤) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣٣١/٢.

صورة وضیئة

وبینما كانت الآیات تعرض صور الجحود والعناد للمشرکین المستکبرین التفتت فجأة لتعرض صورة مشرقة وضیئة للمؤمنین الشاکرین المستسلمین لله تعالیٰ، والمقرین بفضلہ، والمتوجہین إلیہ وحده یطلبون رضوانہ، فلم یبق فی قلوبہم ونفوسہم تعلق بغيره سبحانه، وأقبلوا علیہ سبحانه وحده، فلم تشغلہم النعم عن المنعم، بل هجروا النعم عندما رأوا أنها ستعوقہم عن الوصول إلی رضوانہ، ﴿والذین هاجروا فی اللہ﴾ أي الذین ترکوا الأوطان والخلان والجیران والأموال فی سبیل اللہ ﴿من بعد ما ظلموا﴾ أي أودوا وعذبوا، إنہم أصحاب رسول اللہ ﷺ، الذین ظلمہم المشرکون فی مکة، فصبوا علیہم أنواعاً كثيرة من الأذى والعذاب، حتی خرجوا فراراً بدينہم وعقیدتہم من ديارہم وأموالہم، فلحق طائفة منهم بالحبشة، ثم بوأہم اللہ المدينة بعد ذلك، فجعلہا لهم دار هجرة، فهاجروا إلیہا، وجعل لهم فیہا أنصاراً من المؤمنین، فأووہم ونصروہم وواسوہم^(١).

﴿لنبوئنہم فی الدنیا حسنة﴾ أي لننزلہم فی الدنیا منزلة حسنة، مع الرزق الحسن، والنصر علی عدوہم، وتمکینہم فی الأرض، وكل ذلك اجتمع لهم بفضل اللہ تعالیٰ بعد الهجرة، فمن ترك شيئاً للہ عوضہ اللہ تعالیٰ خيراً منه.

﴿ولأجر الآخرة أكبر﴾ مما عجل لهم فی الدنیا ﴿لو كانوا یعلمون﴾ [٤١] مقداره ومداه، فلا علم لأحد بما أعد اللہ تعالیٰ لعبادہ الصالحین فی الجنة ﴿فلا تعلم نفس ما أخفی لهم من قرۃ أعین جزاء بما كانوا یعملون﴾^(٢).

﴿الذین صبروا﴾ فی سبیل اللہ تعالیٰ، فتحملوا الشدائد، ومفارقة الدیار والأوطان والأهل والخلان ﴿وعلى ربہم یتوکلون﴾ [٤٢] أي: یفوضون أمرہم إلی اللہ تعالیٰ، یرضون بما أصابہم فی سبیلہ.

(١) انظر تفسیر الخازن ٦٠٣/٣.

(٢) السجدة: الآیة ١٧.

رَوَادِ الطَّرِيقِ

ودلت الآية على أن الطريق إلى الله تعالى محفوف بالمخاطر والمكاره، مليء بالعقبات والمصاعب والمعوقات، لا يسير فيه إلا ذوو الصبر والمصابرة، أصحاب الهمم العالية والنفوس الكريمة العزيزة، الذين لا تستعبدهم النعمة، بل تبقى قلوبهم متعلقة بالمنعم وحده جلَّ جلاله.

وإذا كان هذا حال العامة منهم، فما بالك بالخاصة رَوَادِ الطريق القاصد، ودعائته وشدائته من الأنبياء والمرسلين، لقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكونوا من الرجال الأقوياء، فاصطفاهم سبحانه لنفسه، ورباهم على عينه، وكملهم وجملهم بأعلى الأخلاق وأسمى الصفات، ليكونوا الأسوة الحسنة والقُدوة الطيبة، وهم يحملون للناس رسالته، ويقودونهم في الطريق الموصل إلى فضله ورحمته.

﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ أقوياء خَلْقاً وَخُلُقاً.

﴿نوحى إليهم﴾ بواسطة الملائكة المختارين لهذه المهمة، كما مر معنا في أول السورة ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾.

وكان مشركو مكة يقولون جاحدين نبوة النبي ﷺ: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً^(١) فالنبي ﷺ رجل من البشر، كما كان سائر الأنبياء قبله، ولهذا توجهت الآية تخاطبهم على سبيل التحدي لهم بعد أن عرضت الآيات صُوراً من صُور جحودهم وعنادهم، فإن شككتهم في هذه الحقيقة بسبب جهلكم ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ أهل العلم من أتباع الأنبياء السابقين ﴿إن كنتم لا تعلمون﴾ [٤٣] أن جميع الأنبياء كانوا رجالاً من البشر، وأن محمداً ﷺ مثلهم، وليس بدعاً منهم، فلماذا تجحدون رسالته معترضين على بشريته؟! إن الحكمة تقتضي أن يرسل الله سبحانه إلى البشر رسولاً منهم ليتمكنوا من رؤيته وسماع كلامه وفهم رسالته، ولهذا قال تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم

(١) انظر تفسير البضاوي ٦٠٤/٣.

الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً * قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴿١﴾.

ودلت الآية أن على الجاهل أن يسأل العالم المتخصص مهما كان هذا العالم، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها من أي وعاء خرجت.

ولقد أرسل الرسل إلى البشر بالحجج والبراهين، وأنزل الله عليهم الكتب، فمن الضروري أن يكونوا بشراً ليقوموا لهم الحجج، وينصبوا الأدلة والبراهين، ويبينوا لهم مراد الله تعالى في كتبه المنزلة، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

القرآن والسنة

﴿بالبينات والزبر﴾ أي أرسلناهم بالبينات والزبر، وقد يكون المعنى: أسألوا أهل العلم بالبينات والزبر التي أرسل بها المرسلون والبينات والزبر ركنان أساسيان في رسالة كل رسول من الله تعالى، فالبينات: هي الحجج والبراهين المؤيدة لصدقه وصحة رسالته، وأما الزبر: فهي الكتب المنزلة على الرسل، وفيها الأحكام والشرائع التي أرسل بها الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وظيفة الرسل بالنسبة لهذه الكتب المنزلة عليهم، وظيفة تبليغ وبيان ولهذا التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تخاطبه بقوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ أي أنزلنا إليك القرآن الكريم لتبين للناس ما فيه من أحكام وتشريع، كلفهم الله تعالى بها فالرسول ﷺ يبين لجميع الناس مراد الله عز وجل ما أجمل في كتابه الكريم ولم يفصله، فهو الأمين المؤمن على أسرار معاني القرآن الكريم، ولا يمكن فهم مراد ما أجمل سبحانه في كتابه من غير السنة النبوية المطهرة.

وإن الذين يعرضون عن السنة المطهرة، ويزعمون أنهم يتمسكون بالقرآن

(١) الإسراء: الآيتان ٩٤ - ٩٥.

الكريم فقط، هم في الحقيقة معرضون عن دين الله تعالى وشرعه، ومعرضون أيضاً عن كتاب الله تعالى الذي أمر باتباع سنته ﷺ والتمسك بها في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾^(١).

فأحكام دين الله تعالى وشرعه تستمد من الكتاب والسنة، فالكتاب غالباً يشرع أصول الأحكام، والنبي ﷺ يبينها ويفصلها في أقواله وأفعاله وتقريراته، ولهذا قال ﷺ لأصحابه في حجة الوداع: «لتأخذوا مناسككم فإنني لا أدري لعلني لا أحج بعد حجتي هذه»^(٢) وقال ﷺ أيضاً: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٣).

وللنبي ﷺ إلى جانب تبين مجمل القرآن الكريم، أن يستقل بتشريع الأحكام، لأنه عليه الصلاة والسلام كما وصفه الحق سبحانه لا ينطق عن هوى نفسه أبداً، فكل ما يصدر عنه تشريع ووحى من الله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ * إن هو إلا وحي يوحى^(٤).

وكما آتاه الله تعالى القرآن، آتاه السنة أيضاً، وأمر بطاعته في آيات كثيرة، منها ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون﴾^(٥) وجعل سبحانه طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام، طاعة له عز وجل، فقال: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾^(٦) ولا وصول إلى رحمته سبحانه وجنته إلا بطاعة رسوله ﷺ، ففي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي، قالوا: يا رسول الله ومن أبي؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن

(١) الحشر: الآية ٧.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الحج - رقم ١٢٩٧ ورواه أيضاً أبو داود والنسائي بلفظ: خذوا عني مناسككم.

(٣) صحيح البخاري كتاب الأذان رقم ٦٣١.

(٤) النجم: الآيتان ٣ - ٤.

(٥) الأنفال: الآية ٢٠.

(٦) النساء: الآية ٨٠.

عصاني فقد أبي»^(١). ولهذا أخبر الله تعالى عن أصحاب النار أنهم يعذبون فيها وهم يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾^(٢).

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٤٤] فيما أنزل الله تعالى إليهم، فالتفكر في آيات الله تعالى أمر مطلوب، لفهم معانيها، والاتعاظ بها، والوقوف على إعجازها وهو التدبر الذي حثَّ سبحانه عليه في مواضع من القرآن الكريم، منها: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

ومنها أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٤).

تهديد ووعيد

وعادت الآيات الكريمة بعد هذه الوقفة القصيرة عند المهاجرين والمرسلين، إلى الجاحدين المعاندين، تتوعدهم وتهددهم لعلهم يرجعون عن عنادهم وجحودهم، قبل أن يهلكهم الله تعالى كما أهلك من قبلهم ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي عملوا السيئات، وهم أهل مكة الذين مكروا برسول الله ﷺ، وصدّوا أصحابه عن الإيمان ﴿أَنْ يُخَسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ أي يجعلها تغور تحت أقدامهم، كما فعل سبحانه بقارون من قبلهم، الذي جحد فضل الله تعالى عليه، واغتر بنفسه وماله، وقال: إنما أوتيته على علم عندي، فكانت عاقبة جحوده وغروره ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾^(٥).

﴿أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٤٥] بإتيانه، إما لغفلتهم، وإما لإتيانه من مآمنهم، أو من حيث يرجون إتيان ما يشتهون^(٦) كما مر معنا في

(١) صحيح البخاري في الاعتصام رقم ٧٢٨٠.

(٢) الأحزاب: الآية ٦٦.

(٣) ص: الآية ٢٩.

(٤) محمد: الآية ٢٤.

(٥) القصص: الآية ٨١.

(٦) تفسير أبي السعود ١١٧/٥.

قوله سبحانه: ﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾.

﴿أو يأخذهم في تقلبهم﴾ أي يهلكهم في أثناء تصرفهم وانتقالهم في الأسفار وفي إقبالهم وإدبارهم.

﴿فما هم بمعجزين﴾ [٤٦] بممتنعين من عذاب الله تعالى، أو فائتين بالهرب والفرار من قبضة قدرته جلّ وعلا.

﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ أي وهم خائفون وجلون، بأن يهلكهم على دفعات شيئاً فشيئاً، حتى يهلكهم عن آخرهم.

والمراد من تنويع التهديد بهذه الأحوال الثلاثة بيان قدرته سبحانه على إهلاكهم بأي وجه كان، لا بيان الحصر^(١) فثمة أحوال كثيرة لإهلاكهم وكل هذا التهديد والوعيد ليعرفوا قدرة الله تعالى عليهم، فيقبلوا على طاعته ﴿فإن ربكم لرءوف رحيم﴾ [٤٧] حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، فإذا لم يأخذكم بالعقوبة مع ما فيكم، فإنما رأفته تقيكم، ورحمته تحميكم^(٢).

مواكب الساجدين

ثم دعته الآيات إلى التأمل والتفكير فيما حولهم من المخلوقات، ليروا أنها جميعاً خاضعة لله تعالى، مستسلمة ومنقادة له جلّ وعلا فلا ينبغي أن يشذوا عما حولهم من المكنونات:

﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ له حجم وظل.
﴿يتفياً ظلاله﴾ أي تمتد بقدرة الله تعالى ظلاله، ثم تفيء وتنقبض حسب ناموس إلهي دقيق محكم، لا يختل ولا يضطرب.

﴿عن اليمين والشمال﴾ أي يحدث تفيؤ الظلال كل يوم مرتين، مرة من جهة اليمين، ومرة من جهة الشمال، بقدرة سبحانه، كما قال في موضع آخر:

(١) تفسير أبي السعود ١١٧/٥.

(٢) انظر تفسير النسفي ٦٠٧/٢.

﴿ألم تر إلى ربك كيف مَّدَّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ * ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴿^(١) .

ولعل أفراد ﴿اليمين﴾ وجمع ﴿الشمال﴾ كإفراد ﴿النور﴾ وجمع ﴿الظلمات﴾ إذ يُرمز باليمين لطريق الحق، وهو واحد، ويرمز ﴿بالشمال﴾ لطرق الباطل، وما أكثرها!! .

﴿سَجَّداً لله وهم داخرون﴾ [٤٨] أي: وهم في حال السجود لله تعالى ذليلون صاغرون، فكل ما له ظل يسجد لله جلَّ وعلا، ويخضع له، وينقاد لمشيئته. ثم ضمت الآيات جميع المخلوقات إلى مواكب الساجدين.

﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة﴾ فجميع المخلوقات السماوية والدواب الأرضية خاضعة لله تعالى خضوع الطبع والانقياد لمشيئته التامة النافذة في جميع المخلوقات، أو خضوع التكليف والانقياد لأمره سبحانه ﴿والملائكة﴾ أي: والملائكة أيضاً تسجد لله تعالى، وتخصيصها بالذكر تعظيماً لها وتفخيماً لأمرها، فإن هذه المخلوقات النورانية العظيمة تسجد لله جلَّ وعلا أيضاً، وسجود كل شيء بحسبه، فسجود المسلمين والملائكة لله تعالى سجود عبادة وطاعة، وسجود غيرهم سجود انقياد وخضوع^(٢) .

﴿وهم لا يستكبرون﴾ [٤٩] عن عبادته جلَّ جلاله والسجود له. ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ أي يخافون الله تعالى خوف الإجلال والتعظيم والهيبة، وهو سبحانه فوقهم بالقهر والغلبة، أو فوقية تليق بذاته سبحانه، كما قال: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ الآية^(٣) .

﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ [٥٠] لأنهم منقادون تماماً لأمره سبحانه ومشيئته، كما وصفهم في موضع آخر فقال: ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾^(٤) .

(١) الفرقان: الآيتان ٤٥ - ٤٦ .

(٢) تفسير الخازن ٦٠٨/٣ .

(٣) الأنعام: الآية ٦١ .

(٤) الأنبياء: الآية ٢٧ .

وفي الحديث الشريف عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظن^(١) السماء، وحق لها أن تظن، ما فيها موضع أربع أصابع، إلا وملك واضع جبهته ساجداً، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذثتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُعداء من الطرقات تجأرون إلى الله تعالى»^(٢).

ومن السنة إذا سمع المسلم هذه الآية أو قرأها، أن يضم نفسه إلى مواكب الساجدين، فيسجد لله تعالى سجود التلاوة.

تقرير التوحيد

إن للشكر ارتباطاً وثيقاً بالتوحيد، ولا يكون الإنسان شاكراً إلا إذا كان موحداً، يعبد الله سبحانه وحده، لقد ركزت آيات سورة النحل على هذا المعنى في مواضع متعددة، وأبرزته بأساليب متنوعة، مر معنا بعضها، وها هي الآن تقرره بأسلوب نبي قاطع حازم عن الشرك، صادر عن الله تعالى مباشرة.

﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ فالاثنيانية تنافي الألوهية، والإله الحق واحد أحد لا يتعدد، وفي الآية رد على الثنوية من المجوس الذين يعتقدون بوجود إله للنور والخير وإله للظلمة والشر. ﴿إنما هو إله واحد﴾ إذ يستحيل أن يكون في الوجود إلهان اثنان، والوحدة من لوازم الألوهية، لأنها دليل الكمال.

وهذا الإله الواحد هو الخالق المنعم، الذي يجب أن يعبد ويعظم: ﴿فإياي فارهبون﴾ [٥١] أي: فارهبوني وخافوني، ولا ترهبوا غيري، وتحول صيغة الكلام من الغيبة إلى التكلم والحضور، بأسلوب الالتفات أبلغ في الترهيب، كما أن تقديم المفعول على الفعل يفيد الحصر، فالرهبة من الله تعالى وحده المالك الخالق الذي بيده كل شيء جلّ جلاله ﴿وله ما في السموات والأرض﴾ خلقاً وملكاً وعبداً.

(١) أظن: صوّتت من ثقل ما تحمل.

(٢) رواه الحاكم والترمذي واللفظ له، وهو في الصحيحين مختصراً.

﴿وله الدين واصباً﴾ أي له العبادة والطاعة والخضوع دائماً، فمعنى الدين هنا: الطاعة، ومعنى الواصب: الدائم اللزم، كما في قوله تعالى: ﴿دحوراً ولهم عذاب واصب﴾^(١).

قال ابن قتيبة: ليس من أحد يُدان له ويطاع إلا انقطع ذلك، لسبب في حال الحياة أو بالموت، إلا الحق سبحانه وتعالى، فإن طاعته واجبة أبداً لأنه المنعم على عباده، المالك لهم، فكانت طاعته واجبة دائمة أبداً^(٢).

فهو سبحانه الدائم الباقي، الذي لا يزول سلطانه، فكل ملك وسلطان غير ملكه جلّ وعلاً وسلطانه ناقص وزائل، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»^(٣). أخبر جلّ وعلاً عن ذلك في قوله الكريم: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾^(٤).

وختم الله تعالى الآية بهذا الاستفهام الإنكاري: ﴿أفغير الله تتقون﴾ [٥٢] بعد أن قامت الدلائل على أنه سبحانه وحده الخالق والمالك والمنعم، فكيف تخشون غيره وتعبدون سواه؟!

المنعم الحقيقي

﴿وما بكم من نعمة﴾ أي نعمة، دقت أم عظمت، ظهرت أم خفيت، ﴿فمن الله﴾ وحده لا من سواه، فهو المنعم المتفضل عليكم بجميع النعم، والذين يوصلون إليكم النعم ليسوا سوى وسائل مسخرة بمشيئته سبحانه وقدرته.

وقد يقول قائل: إذا كان الله سبحانه هو المنعم وحده، فلماذا حث

(١) الصفات: الآية ٩.

(٢) تفسير الخازن ٦١٠/٣.

(٣) صحيح البخاري في كتاب الرقاق رقم ٦٥١٩.

(٤) غافر: الآية ١٦.

النبي ﷺ على شكر أصحاب المعروف والفضل من الناس في عدد من الأحاديث الشريفة، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يشكرُ الله من لا يشكرُ الناس»^(١).

وأقول: هذا خلق كريم من أخلاق النبي ﷺ سنه بفعله، وحث عليه بقوله، لأن هؤلاء الناس كسباً واختياراً في فعلهم، فهم يُشكرون على بادرة الخير النابعة من نفوسهم بمشيئته سبحانه وتقديره، وفي شكرهم تشجيع لهم على المزيد من أعمال الخير والإحسان. فلو لم يخلق الله تعالى في قلوب الآباء مشاعر العطف والحب والحنان لأولادهم ما اهتم والد بولده، وما حفلت أم بولدها، فالمنعم المتفضل إذن هو الله تعالى، فالشكر له أولاً، ثم للوالدين، كما قال سبحانه: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

ثم إن شكر الله تعالى طاعة له وعبادة وخضوع، بينما شكر غيره بر وإحسان وامتنان، قد لا يتجاوز اللسان.

في مواجهة الأخطار

ويستشعر الناس شدة احتياجهم وافتقارهم إلى الله تعالى وفضله ورحمته حين تواجههم الأخطار، وتحيط بهم الأهوال والشدائد، ولهذا قال سبحانه بعد أن قرر أنه وحده المنعم المتفضل:

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَلِإِلَهِ تَجَارُونَ﴾ [٥٣] أي: إليه سبحانه تتوجهون وأنتم ترفعون أصواتكم بالدعاء والاستغاثة، فلا تسألون غيره، تنسون الآباء والأبناء والأصدقاء، لأنكم تعلمون أنه تعالى وحده المنعم المتفضل، والقادر على كشف الضر عنكم، كما قال سبحانه في مواضع كثيرة منها: ﴿أَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾^(٣).

(١) رواه أبو داود والترمذي، وقال: صحيح. كما في الترغيب والترهيب ٧٨/٢

(٢) لقمان: الآية ١٤.

(٣) النمل: الآية ٦٢.

ثم ماذا يكون منكم بعد أن ينعم عليكم بالنجاة والسلامة: ﴿ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ [٥٤] أي: يعودون إلى الشرك والجحود والعناد.

ونبه سبحانه بكلمة ﴿إذا﴾ الفجائية على مسارعتههم إلى الكفر والجحود كما قال في موضع آخر: ﴿وإذا مسَّ الناس ضرٌّ دَعُوا رَبَّهُمْ مَنِينِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحِمَهُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يَشْكُرُونَ﴾^(١).

وقال أيضاً: ﴿وإذا مسَّ الإنسان الضرَّ دَعَا لِنَجْوِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضَرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرِّهِ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

وعقب سبحانه على موقف الجحود والكفر، فقال موبخاً لهم مع التهكم المرير منهم ﴿ليكفروا بما آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعم، فإن عاقبة كفرهم وجحودهم عائدة عليهم، كما قال في موضع آخر: ﴿فلما أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣).

﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [٥٥] عاقبة جحودكم، وَغِبَّ تَمَتَّعُكُمْ بِنِعْمِهِ وَإِعْرَاضُكُمْ عَنْ شُكْرِهِ. وفعل الأمر للتهديد والوعيد، ومثله في القرآن كثير، كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾^(٤) وقوله أيضاً: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مَجْرُمُونَ﴾^(٥).

مفارقات مستنكرة

وبعد صور الجحود والعناد، عرضت الآيات صوراً لمفارقات وتناقضات

(١) الروم: الآية ٣٣.

(٢) يونس: الآية ١٢.

(٣) يونس: الآية ٢٣.

(٤) إبراهيم: الآية ٣٠.

(٥) المرسلات: الآية ٤٦.

قبيحة مستنكرة، تدل على مدى الجهل والسفه والطيش التي كانوا عليها في الجاهلية.

﴿ويجعلون لما لا يعلمون﴾ أي: يجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شيئاً ﴿نصباً﴾ مما رزقناهم ﴿من الأنعام والزرع والثمار، فصله سبحانه في موضع آخر فقال: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾^(١).

ثم أقسم جلّ وعلا بنفسه على نفسه، أنه سيحاسبهم على فعلهم هذا وقسمه سبحانه يدل على شدة غضبه عليهم:

﴿تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾ [٥٦] أي: تكذبون في تأليه الأصنام، وجعل قسم من نعم الله تعالى لها، فالله سبحانه يغضب أشد الغضب من الذين ييحدون فضله، ويتقربون بما أنعم به عليهم إلى غيره.

وثمة مفارقة أخرى أكثر قبحاً وأعظم جهلاً وكفراً، كانوا عليها في الجاهلية ﴿ويجعلون لله البنات﴾ وهم كنانة وخزاعة من العرب، وصفوا الملائكة بالأنوثة، وجعلوها بنات لله سبحانه وتعالى، فعبدوها معه جلّ وعلا، ونسبوا إليه تعالى الولد، واختاروا لأنفسهم أقوى القسمين من الأولاد وهم البنون، ونسبوا إليه سبحانه أضعفهما، وهن الإناث، وما كانوا يرضون الإناث لأنفسهم، إذ كانوا يكرهون الإناث من الأولاد كراهية شديدة، ولهذا قال لهم سبحانه موبخاً لهم ومبكتاً: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ * تلك إذا قسمة ضيزى^(٢).

﴿سبحانه﴾ عن قولهم هذا، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، والمنزّه والمقدّس عن الصاحبة والولد.

(١) الأنعام: الآية ١٣٦.

(٢) النجم: الآيتان ٢١ - ٢٢.

﴿ولهم ما يشتهون﴾ [٥٧] من الأولاد والذكور، مع أن الذكور والإناث من خلقه ومن ملكه وعبيده، فقولهم هذا كذب وافتراء وجهل وحقارة كما قال سبحانه ﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * ما لكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون﴾^(١).

ثم بين سبحانه شدة كراهيتهم للأنثى في أولادهم، فقال: ﴿وإذا بشر أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسوداً﴾ أي صار وجهه مسوداً من الكآبة والحزن ﴿وهو كظيم﴾ [٥٨] وهو مملوء القلب حقناً وغيظاً.

﴿يتوارى من القوم من سوء ما بشر به﴾ أي يستخفي عن قومه وأبناء مجتمعه، كأنه فعل جرماً شنيعاً مستقبهاً، وهذا يدل على أن كراهية الأنثى كانت سائدة وشائعة بينهم، حتى كانوا يرون في ولادة البنت لأحدكم عاراً وسُبَّةً، تستدعي منه التستر والاختفاء عن الأنظار.

ثم صورت الآيات الحيرة والنوازع النفسية المتصارعة في قلوبهم، فقالت: ﴿أيمسكه على هون﴾ أي: أترك جسد المولودة ويربيه، ويرضى بهوان نفسه ﴿أم يدسه في التراب﴾ أم يخفيه في التراب ويكتم أنفاسه؟ ويريح قلبه وأعصابه منه، وذلك بوأدها، ودفنها في التراب حية.

﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ [٥٩] أي: بش ما نسبوا إلى الله تعالى، وبش ما قالوا، وبش ما فعلوا.

الأجل المسمى

فالله سبحانه ينتزه عن كل صفات النقص، ويتصف بكل صفات الكمال، وإنما يكون النقص فيهم وينسب إليهم.

﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ كالضعف والعجز، والحاجة والدلة، والطيش والرعون، وقتلهم لأولادهم أثر من آثار طيشهم وجهلهم وحقارتهم.

(١) الصفات: الآيتان ١٥١ - ١٥٢.

﴿ولله المثل الأعلى﴾ أي: له سبحانه الكمال المطلق، الذي لا تلحقه شائبة نقص أبداً.

﴿وهو العزيز﴾ الغالب على كل شيء، والذي لا يمتنع عليه شيء، أو هو الواحد الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿الحكيم﴾ [٦٠] في جميع أقواله وأفعاله، جلّ جلاله. ومن عزته سبحانه وحكمته، أنه لا يعاجلهم بالعقوبة على جرائمهم. ﴿ولو يؤاخذ الله الناس﴾ المجرمين الظالمين ﴿بظلمهم ما ترك عليها﴾ أي على الأرض ﴿من دابة﴾ تدب عليها، أي لأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين، فشؤم الظلم والفجور يعم ويتشتر، بين ذلك سبحانه بقوله: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾^(١) وفي الحديث الشريف عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعثوا على أعمالهم»^(٢).

ولعل السبب في ذلك تقصير الآخرين وتقاعسهم عن زجر المجرمين ومنعهم من فجورهم وظلمهم.

﴿ولكن﴾ بحكمته سبحانه ورحمته ﴿يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ سبق به علمه، وتعلقت به إرادته ومشيتته، فعزته سبحانه تصاحب حكمته، فهو يهمل ولا يهمل.

﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة﴾ أي: شيئاً من الزمن ولو يسيراً، ﴿ولا يستقدمون﴾ [٦١] إنها آجال محددة ومبرجة بدقة، لا يستطيع أحد أن يقدمها أو يؤخرها، لأنها تقدير العزيز الحكيم جلّ جلاله.

قال في موضع آخر: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها

(١) الأنفال: الآية ٢٥.

(٢) صحيح مسلم في كتاب الجنة رقم ٢٨٧٩.

من دابةٍ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴿١﴾.

أعجب المفارقات

ومن أعجب المفارقات المستنكرة التي كانوا عليها، أن بعضهم كان يرجو لنفسه العاقبة الحسنة يوم القيامة، إن كان هناك حياة ثانية، هكذا يشركون بالله تعالى، ويفترون عليه، وينكرون يوم القيامة، ثم يقولون: إن كان هناك حياة ثانية بعد الموت فستكون العاقبة الحسنة لنا فيها. !!!

﴿ويجعلون﴾ في اعتقادهم ﴿الله ما يكرهون﴾ لأنفسهم من البنات، ومع ذلك ﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾ وهو ﴿أن لهم الحسن﴾ أي: لهم العاقبة الحسنة يوم القيامة.

وقد حكى الله مثل هذا القول العجيب في عدة مواضع، منها: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوطاً * ولئن أذقناه رحمةً منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلتنبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ (٢) ومنها قول صاحب الجنتين الكافر: ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ (٣) ومنها قول أحد كبار مشركي قريش الذي قال الله تعالى فيه: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالاّ وولداً﴾ (٤).

وغرورهم وتكبرهم سبب هذه المفارقات والتناقضات، بين سبحانه ذلك فيما حكاه عنهم في قوله: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ (٥).

(١) فاطر: الآية ٤٥.

(٢) فصلت: الآية ٤٩ - ٥٠.

(٣) الكهف: الآية ٣٦.

(٤) مريم: الآية ٧٧.

(٥) سبأ: الآية ٣٥.

أعمالهم الغرور عن رؤية الحقيقة، فكيف يفعلون المعاصي والمنكرات ويرجون الحسنات!!!؟

ورد سبحانه عليهم أبلغ ردٍّ وأجزه فقال:

﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾ فكان ألسنتهم هي الكذب ذاته، أو كأنها صورة له، تحكيه وتصفه بذاتها، فهو من بليغ الكلام وبديعه، ومثله قولهم: عينها تصف السحر، أي ساحرة، وقدّها يصف الهيف، أي: هيفاء، وقول أبي العلاء المعري:

سرى برق المعرة بعد وهن فبات برامة يصف الكلالا^(١)

ثم ألقى سبحانه في وجوههم الحقيقة كاملة:

﴿لا جرم أن لهم النار﴾ أي: حقاً أن لهم النار بلا شك ولا ريب، ﴿وأنهم مفرطون﴾ [٦٢] وأنهم معجلون إليها يوم القيامة غير مؤخرين.

مواساة وتكريم

وكررت الآيات القسم بالله تعالى مرة ثانية، وهي في هذه المرة تخاطب النبي ﷺ مواسية له ومسلية عما يلقي من عناد قومه وجحودهم: ﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ القبيحة المنكرة، وحسنها لهم بوسوسته.

﴿فهو وليهم اليوم﴾ أي: فهو وليهم في الدنيا، لأنهم استجابوا لوسوسته، وانقادوا لمكره وخداعه، ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب في الدنيا ﴿ولهم عذاب أليم﴾ [٦٣] يوم القيامة.

وفي سياق المواساة والتسلية للنبي ﷺ، بينت الآيات له وظيفته الكبرى التي شرفه الله تعالى بها وكرّمه:

﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه﴾ فتميز بين

(١) انظر روح المعاني ١٤/١٧٢.

الهدى والضلال، وتفرق بين الحق والباطل، والحلال من الحرام فلا يعرف الحق إلا منك، ولا يظهر الهدى إلا بك، وكل الطرق جائزة إلا الطريق الذي تدعو إليه وتسير عليه، فهو الطريق المستقيم القاصد إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ [٦٤] أي: وأنزلنا إليك الكتاب ليكون سبيل هداية المؤمنين، وسبب نزول الرحمات عليهم.

فالقرآن الكريم روح القلوب والنفوس، كما مر معنا في أول السورة ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ يفيض الله تعالى على المؤمنين من بركاته ورحماته عندما يتمسكون بالقرآن الكريم، تلاوةً وتدبراً وعلماً وعملاً.

وكما تحيا الأرض الميتة اليابسة بالمطر، تحيا القلوب بالقرآن الكريم، ولهذا قال تعالى بعد ذلك مباشرة: ﴿والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾ [٦٥] آيات الله سماع تدبر وتفكر.

والجدير بالذكر أنه سبحانه قرن في أكثر من موضع بين حياة القلوب بالقرآن الكريم، وبين حياة الأرض اليابسة بالمطر، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ * اعلّموا أن الله يحيا الأرض بعد موتها قد بينّا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾^(١).

(١) الحديد: الآيتان ١٦ - ١٧.

الفصل الثالث

المجموعة الثانية

عبرة ونعمة

بعد أن انتهت الآيات من عرض صور العناد والجحود والمفارقات العجيبة المستنكرة لدى كثير من الناس، استأنفت تذكير الناس بمجموعة ثانية من نعم الله تعالى عليهم، فعرضت هذه النعم كدلائل وبراهين على وجود الله تعالى وجوده وقدرته وعظمته جلّ جلاله، ولهذا جاءت بداية العرض بأسلوب التأكيد والتقرير:

﴿وإنَّ لكم في الأنعام لعبرة﴾ دلالة يعبر بها من الجهل إلى العلم^(١) تدل على كمال قدرته سبحانه وحكمته.

هذه العبرة هي: ﴿نسقيكم مما في بطونه﴾ أي: نسقيكم من بعض ما في بطون الأنعام، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وإنَّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون﴾^(٢) والأنعام من أسماء الأجناس، ويجوز فيها التذكير نظراً إلى اللفظ كما هو الحال هنا، ويجوز التأنيث نظراً إلى معنى الجماعة الداخلة تحت اسم الجنس، كما في آية سورة المؤمنون^(٣) ولعل حكمة التذكير هنا للتنبيه على أن للذكر الفحل ارتباطاً بتكون اللبن في بطن الأنثى، ولهذا يمتد التحريم بالرضاع إليه، قال القرطبي رحمه الله: استنبط بعض العلماء الجلة من عود هذا الضمير أن لبن الفحل يفيد التحريم، وبه

(١) تفسير البضاوي ٦١٥/٣.

(٢) المؤمنون: الآية ٢١.

(٣) انظر أضواء البيان ٢٩٥/٣.

قضى النبي ﷺ حين أنكرته عائشة رضي الله عنها في حديث أفلح أخي أبي القُعَيْس، فللمرأة السَّقْيُ، وللرجل اللقاح^(١).

والحديث الشريف هو الذي ترويه عائشة رضي الله عنها أن أفلح أخا أبي القُعَيْس، جاء يستأذن عليها، وهو عمها من الرضاعة، بعد أن نزل الحجاب، فأبیت أن آذن له، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته بالذي صنعت، فأمرني أن آذن له^(٢).

ففي الأنعام عبرة باهرة للإنسان، هي في الوقت نفسه نعمة كبيرة من نعم الله عليه، ثم بين سبحانه وجه تخصيص العبرة في الأنعام فقال:

﴿نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِ مِنْ يَنْ فَرِثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [٦٦].

مصانع اللبن

والأنعام جزء من الحيوانات اللَّبُونَة، التي تغذي صغارها بلبنها وهي كثيرة، تنفرد الأنعام من بينها بأنها مجترّة، لأنها تقوم بإعادة الطعام من بطنها إلى الفم مرة ثانية بعد نقهه وتليينه، لتطحنه مرة ثانية ثم تبتلعه، وتسمى هذه العملية بالاجترار، ويطلق على الأنعام بسببها اسم المجترات. كما تتميز الأنعام بتركيب معدتها، فهي مؤلفة من أربعة أقسام: ١ - الكرش ٢ - الشبكية ٣ - أم التلايف ٤ - المعدة الحقيقية.

ومن المعلوم أن غذاء الأنعام يتكون من الأعشاب وأوراق الأشجار والأشواك والحبوب ومخلفات الحصيد، وكلها مواد سللوزية ونشوية معقدة غير ذائبة.

تتناوله بفمها وتمضغه مضغاً جزئياً، ثم تبتلعه حتى يصل إلى الكرش حيث يُدعى بالفرث، كما يقول علماء اللغة: الفرث: السَّرجين مادام في الكرش والجمع فُروث^(٣).

(١) انظر تفسير القرطبي ١٠/١٢٤.

(٢) صحيح البخاري في كتاب النكاح رقم ٥١٠٣.

(٣) الصحاح ١/٢٨٩.

ويوجد في الكرش أعداد هائلة من كائنات حية دقيقة كالبكتيريا التي تشكل المكورات ٩٠٪ منها والأوليات أو وحيدة الخلية، ويحوي كل غرام من مكونات الكرش على مليار كائن حي، وتزداد هذه الأعداد زيادة كبيرة في أثناء الأكل وبعده مباشرة^(١).

تقوم هذه الأعداد الهائلة من البكتيريا بعملية تكوين البروتين، وعملية هدرجة الدهون وتحويلها إلى أحماض، كما تقوم أيضاً بتكوين فيتامين ب إذا كان غذاء الحيوان يفتقر إليه.

وبواسطة شبكة أوعية الدم الكثيفة والحلمات والزغابات التي تغطي جدران الكرش والشبكية وأم التلافيف تتم عملية امتصاص العناصر الذائبة من الفرث ونقلها إلى الدم.

وتنتقل بواسطة الدم إلى ضرع الحيوان، وهو عبارة عن غدة لبنية مؤلفة من شبكة معقدة من القنوات، يتصل بعضها ببعض، وتصب جميعها في حويضة واحدة تنتهي بقناة الحلمة، ذات المصرة الحساسة لحفظ الحليب من الانسكاب، وتفرز هذه المصرة مادة قاتلة للجراثيم لمنع دخول أي ميكروب إلى داخل الضرع.

وتحتوي الغدة اللبنية على شبكة ري معقدة ومتطورة من الأوعية الدموية لتوصيل الدم الشرياني إليها، ورفع الدم الوريدي ثانية منها - وتظهر أوردة اللبن واضحة على جانبي بطن الناقة والبقرة في طور الحلابة^(٢).

اللبن الخالص

هكذا يخرج اللبن الأبيض الصافي اللذيذ من بين الفرث والدم بقدرة الله تعالى ومشيتته، بواسطة إبداعه سبحانه لعمليات دقيقة محكمة باهرة تحير العقول وتدهشها.

(١) اقتبست هذه المعلومات من محاضرة للطبيب البيطري الأخ الصديق أحمد جواد، فقد زودني - حفظه الله - بصورة عن محاضرة له بعنوان: الأنعام والعبرة.

(٢) المصدر نفسه باختصار.

وفي الآية الكريمة حقائق علمية كبيرة، ما كان أحد يعرفها عند نزول القرآن الكريم، مما يدل على أنه كلام الحكيم العليم جلّ وعلا.

والعجيب أن اللبن الذي يخرج بقدرة الله تعالى من بين فرث ودم، لا تجد فيه أي صفة من صفات الفرث والدم، كما وصفه سبحانه بقوله ﴿لَبناً خالصاً﴾ عن أي صفة من صفات الفرث والدم، نقياً معقماً ﴿سائغاً للشاربين﴾ يجري في حلق الشاربين سهلاً لذيذاً هنيئاً مريئاً.

والكشوفات العلمية التي أظهرت الخصائص التي خص الله تعالى بها الأنعام دون سائر الحيوانات اللبونة الأخرى، تبين لنا سر تخصيص الله تعالى لها في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ ففي كل المخلوقات التي خلقها الله سبحانه عبرة، بل عبر كثيرة، ولكن الأنعام تنفرد من بينها بعبرة مخصوصة متميزة لا توجد في غيرها، هي تكوينها العضوي المتميز لتكون مصانع اللبن الصافي المعقم السائغ للشاربين.

وللبن الأنعام وما يُستخلص منه دورٌ كبير في غذاء الإنسان، فهو من نعم الله الكبرى على الإنسان، يستطيع أن يستغني به عن غيره من الأطعمة والأشربة، وفي الحديث الشريف عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أتي رسول الله ﷺ بلبن فشرب فقال: «إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه، وإذا سُقي لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يجزىء من الطعام والشراب إلا اللبن»^(١).

عتابٌ ومنة

ومن اللبن الخالص السائغ انتقلت الآيات إلى نعمة أخرى، نعمة يسيء كثير من الناس استعمالها، فتصبح بسبب ذلك نقمة وبلاء لهم: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب﴾ ثمر ﴿تتخذون منه﴾ أنتم باختياركم وسوء تدبيركم.

(١) رواه أبو داود في سننه، انظر بذل المجهود في حل أبي داود ٦٢/١٦.

وتأمل دقة التعبير وعمق دلالته، فعند الحديث عن اللبن السائغ قال سبحانه ﴿نَسْقِيكُمْ﴾ بينما قال هنا: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ أي: خمرًا فالسُّكر: ما يُسكر.

﴿وَرَزَقًا حَسَنًا﴾ كالدبس والخل والعصير، وغير ذلك مما أحلَّ الله اتخاذه من ثمرات النخيل والأعناب.

قال ابن عباس: السكر ما حَرَّمَ الله من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحلَّ من ثمرتيهما^(١).

ولا دلالة في الآية على حلِّ الخمر، كما فهم بعض المفسرين، فاضطروا إلى القول بأن هذا الحكم منسوخ، واحتجوا بأن الآية مكية، نزلت قبل تحريم الخمر بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون^(٢).

فذكر السكر في مقابل الرزق الحسن، يدل على سوء اتخاذهم وصنيعهم، ففي الآية تعريض بهم وعتاب لهم على اتخاذهم ما يضرهم ويذهب عقولهم من ثمرات النخيل والأعناب، التي يتخذون منها الرزق الحسن أيضاً، وبهذا جمع الله تعالى في آية واحدة بين العتاب والمنة، كما بين سبحانه أيضاً كراهية الخمر قبل أن ينزل الآية الدالة على تحريمه.

ففي الآية قولان: أحدهما يُروى عن الشعبي والنخعي أنها منسوخة... وثانيها أنها جامعة بين العتاب والمنة^(٣).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٦٧] أي: يستعملون عقولهم في النظر

(١) مختصر ابن كثير ٣٢٦/٢، وتفسير الطبري ٩٠/١٤.

(٢) المائدة: الآيتان ٩٠ - ٩١.

(٣) تفسير النيسابوري ٨٧/١٤.

والتأمل والاعتبار، فالعقل من أعظم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وعليه أن يحافظ عليه، فلا يذهب بتناول المسكرات، وعليه أيضاً أن يحسن استعماله.

مصانع العسل

ثم انتقلت الآيات إلى نعمة ثالثة، وهي العسل، وهذه النعمة لا تتدخل بها يد الصنعة البشرية، كما هو الحال في ثمرات النخيل والأعناب، ولهذا تبقى كما خلقها الله تعالى نعمة، جعل الله تعالى فيها الغذاء والشفاء، وقد وكل الله بصنعها حشرة صغيرة، علّمها سبحانه أسرار صناعة هذه النعمة، وهياً لها الأسباب والمواد التي تحتاج إليها، وسمى سبحانه سورة النعم باسم هذه الحشرة الصغيرة (النحل) للدلائل الكبيرة، والحكم البديعة التي جمعها الحكيم العليم في هذه الحشرة الصغيرة، وفي العسل الذي تقوم بصنعه.

﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ أي: ألهم خالقك ومالك أمرك أيها الإنسان النحل، بما ركب في طبائعها وأصل خلقتها، وواحد النحل نحلة، كنخيل ونحلة.

﴿أن اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [٦٨] أي: ابني بيوتك إما في الجبال، أو فوق جذوع الأشجار، أو فيما بينه الناس للنحل الذي يربونه قريباً منهم.

والبيوت التي يبنها النحل من أعجب البيوت وأدقها وأحكمها، لا يقوى على مثلها إلا حذاق المهندسين بآلاتهم الدقيقة وحاسباتهم، فهي بيوت سداسية الشكل، ذات أضلاع متساوية، مرصوفة إلى بعضها بإحكام وإتقان بحيث لا تجد بينها أدنى فراغ، ولا ترى فيها أي تخلخل وتفاوت، ولعل تأنيث الضمير في قوله تعالى ﴿اتَّخِذِي﴾ يشير إلى حقيقة هامة، وهي أن إناث النحل هن العاملات اللواتي يقمن بجميع أعمال بناء البيوت وصنع العسل، أما الذكور فلا عمل لهم سوى تلقيح النحلة الملكة، التي تقوم بوضع البيض للتكاثر والتناسل.

وللنحل حياته الجماعية الخاصة به، ففي كل خلية تسكن عشيرة من النحل وتعيش حياة جماعية قائمة على أعلى درجات التنسيق والتعاون بين أفرادها.

ففي كل خلية ملكة، تمتاز بكبر حجمها، ينحصر عملها في وضع البيض، وتقوم العاملات بإطعام الملكة من الغذاء الملكي الخاص، وهو غذاء مركز تركيزاً كبيراً، يحتوي على البروتينات والسكريات والأملاح المعدنية والفيتامينات، تفرزه النحلات العاملات من غدة خاصة بين فكّيهما، ويحتوي أيضاً على مواد، لها خواص الهرمون الأنثوي يساعد على نضج البيوض في أعضاء الملكة التناسلية، التي يمكن أن تصنع في كل يوم ما بين ألف إلى ألفي بيضة ملقحة.

وتقضي النحلات العاملات عمرهن في عمل دائب، فمنذ اليوم الرابع تبدأ النحلة الصغيرة عملها بإطعام اليرقات بعد خروجهن من البيض، ومن العاملات ما يدعى بوصيفات الملكة، يقمن بتنظيف جسمها وتمشيط شعرها وتقديم الطعام لها، وأكثر العاملات يطرن خارج الخلية بحثاً عن رحيق الأزهار وغبار الطلع والماء، ويقوم بعضهن بأعمال البناء وصّب الشمع على شكل أقراص مكونة من ثقب سداسية تستعمل كخزانات للعسل وكمهد للبيوض، وبعضهن يقمن بأعمال تنظيف الخلية وتهويتها وحراستها^(١).

رحيق الأزهار

﴿ثم كلي من كلّ الثمرات﴾ التي تشتهين الأكل منها، إذ جعل الله تعالى في رحيق جميع الأزهار المواد الأولية المكونة للعسل.

والرحيق: سائل مائي رقيق حلو، يقدمه النبات للنحلة وللحشرات الأخرى، مقابل الخدمات التي تقدمها هذه الحشرات للنبات، والإنسان هو المستفيد، فهذه الحشرة الصغيرة، تقدم خدمات كبيرة للناس، فهي علاوة على

(١) العسل فيه شفاء للناس ٤٣ - ٤٥ باختصار وتصرف.

صنعها للشمع والعسل، تقوم بتلقيح الأزهار، ونقل غبار الطلع من الأزهار المذكورة إلى الأزهار المؤنثة بواسطة حركتها الدائبة بينها، وبدون مشاركة النحلة فإن عدداً كبيراً من الأزهار قد لا تثمر.

ويوجد الرحيق عادة في الجزء السفلي من الزهرة المسمى بالكؤيس، وقد يوجد في بعض النباتات في مؤخرة الجزء السفلي من الأوراق.

وتختلف كمية الماء والسكر في الرحيق من نبات لآخر، والنحلة تعرف هذا جيداً، ولهذا السبب تذهب إلى الأزهار التي يكون التركيز السكري فيها أعلى من غيرها، فسبحان من علمها وأهمها.

ولكي تحصل النحلة على مقدار قطرة من الرحيق، فإن عليها أن تزور عدداً كبيراً من الأزهار، يقدر بـ ٥٠٠ - ١١٠٠.

ولكي تحصل على مائة غرام من العسل فعلى النحلة أن تزور ما يزيد على مليون زهرة.

وتمتص النحلة الرحيق بخرطومها، حتى إذا امتلأت به معدتها الخاصة بالعسل عادت طائفة إلى الخلية^(١).

السُّبُل المَذَلَّةُ

وعلى النحلة أن تقطع مسافات كبيرة في الحقول والبساتين والغابات لتحصل على ما تريد من الرحيق، وقد يسر الله تعالى لها معرفة الطرق التي تسلكها حتى لا تضيع، فقال جلّ وعلا:

﴿فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾ أي: سيري في الطرق التي أهلك الله تعالى أن تسلكي فيها، فهي مذلة لك ومسهلة، فلا تضيعين فيها ولا تضلين عنها. وتستطيع النحلة أن تطير بسرعة ٦٥/ كم في الساعة، وإذا كانت تحمل

(١) المرجع نفسه ص ٤٧.

من الرحيق ما يعادل ثلاثة أرباع وزنها، فإنها تستطيع أن تطير بسرعة ٣٠ / كم في الساعة، ويكلف الكيلوغرام الواحد من العسل النحلة ما بين ١٣٠ ألف إلى ١١٥ ألف حمل من الرحيق، فلو فرضنا أن الزهور تقع على بعد ١٥٠٠ متر من الخلية، فعلى النحلة أن تطير مقدار ثلاثة كيلومترات في كل نقلة، وعليها لصنع كيلوغرام واحد من العسل أن تطير مسافة تصل إلى ٣٦٠ - ٤٠٠ ألف كم، أي ما يعادل عشر مرات محيط الأرض حول خط الاستواء^(١). إنه جهد كبير هائل تبذله هذه الحشرات الصغيرة لتقدم كيلوغراماً واحداً من العسل للإنسان، فسبحان من أهمها وذل لها السبل.

العسل غذاء وشفاء

﴿يخرج من بطونها شراب﴾ وهو العسل، وسماء شراباً لأنه يُشرب، فله قيمة غذائية كبيرة، فهو أسرع المواد السكرية تمثيلاً في الجسم، لأن معظم سكرياته أحادية، سكر فواكه وسكر عنب، تُمتص مباشرة في الجسم دون هضم، وهو يحتوي أيضاً على أملاح، وفيتامينات، وحامض الفورميك، ومواد غير معروفة تبلغ ٤٪ من تركيب العسل، وربما كان لكل هذه الخصائص أكبر الأثر في تجديد القوة الطبيعية لمن يتناول عسل النحل^(٢).

﴿يختلف ألوانه﴾ بحسب اختلاف الأزهار والنباتات التي رعتها النحل. ﴿فيه شفاء للناس﴾ أي جعل الله تعالى في العسل شفاء للناس من كثير من الأمراض التي تصيبهم.

ولابد أن يكون للشفاء بالعسل علاقة بالمقدار المستعمل منه، فلكل مرض مقدار معين يناسبه، ولهذا حدّدت مقادير الأدوية بدقة، وإذا ما استعمل الإنسان مقدراً من العسل يتناسب مع مرضه، حصل الشفاء، وبرأ بإذن الله تعالى.

(١) المرجع نفسه ص ٤٧.

(٢) مجلة العلم عدد ٢١ ص ٢٦.

من إعجاز السنة النبوية العلمي

دل على ذلك الحديث النبوي الشريف، فعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه، وفي رواية: استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» ثم أتاه الثانية، فقال: «اسقه عسلاً» ثم أتاه الثالثة فقال: «اسقه عسلاً» ثم أتاه فقال: فعلت، فقال: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً» فسقاه فبرأ^(١).

وقد ثبت علمياً أن العسل يبيد الجراثيم ويقضي عليها، وقد أجرى الطبيب الجراثيمي ساكيت اختباراً علمياً عن أثر العسل في الجراثيم، فقام بزرع جراثيم مختلف الأمراض في مزارع العسل الصافي، ولبت ينتظر... فأذهلته النتيجة المدهشة، فقد ماتت جميع الجراثيم وقضي عليها، لقد ماتت جراثيم الحمى النمشية (التيفوس) بعد ٤٨ / ساعة وجراثيم الحمى التيفية بعد ٢٤ / ساعة... وجراثيم الزحار العصري قضي عليها تماماً بعد عشر ساعات... وهذا ما جعل الطبيب ظافر العطار والأستاذ سعيد القري يذهبان في مقالة بعنوان: العسل ينقذ الإنسان من جراثيمه الممرضة، في مجلة طبيبك عدد تشرين ١٩٧٠، إلى القول إن قول ساكيت: إن جراثيم الزحار قد قضي عليها بعد عشر ساعات فقط، قد يعطينا فهماً جديداً للحديث النبوي - الذي سبق ذكره - فاستطلاق البطن (الإسهال) يمكن أن يكون بسبب الزحار، وتجربة ساكيت أثبتت أن العسل يقضي على جراثيمه^(٢).

وبهذا ظهر علم جديد من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، ووجه جديد من إعجاز سنته، فهذه الحقائق العلمية ما عرفها العلماء إلا في العصر الحاضر.

وقد أجمع الأطباء والباحثون قديماً وحديثاً على أن العسل يصلح لعلاج كثير من الأمراض، فقد اعتمد عليه كمادة مضادة للعفونة ومبيدة للجراثيم في

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري في كتاب الطب رقم ٥٦٨٤.

(٢) مجلة العلم عدد ٢١ ص ٦٢ - ٦٣.

أحدث مجالات الطب الحديث لحفظ الأنسجة والعظام والقرنية أشهراً عديدة، واستعمالها حين الحاجة إليها في جراحة التطعيم والترميم.

كما أظهرت الدراسات الحديثة الفرق الشاسع بين السكر العادي والعسل في مجال التغذية، وخصوصاً للأطفال، فالسكاكر المصنعة من العسل لا تحدث نخراً ولا تسبب نمو الجراثيم.

كما برهنت دراسات ف بوكسي خاصية العسل في تثبيت الكلس على العظام والأسنان، وأثره الفعال في نمو العظام الطبيعي عند الإنسان والحيوان.

معالجات بعض الأمراض بالعسل

وفي العسل شفاء من أمراض العين، وأحدث ما نشر عن معالجة أمراض العين بالعسل ما كتبه كل من ماكسيمو وبالوتينا عام ١٩٣٧ عن قيمة العسل كعلاج ضروري للأطفال المصابين بقصر البصر.

وفي مجال أمراض الأنف والأذن والحنجرة أبحاث تؤكد فائدة تطبيق العسل موضعياً في معالجة اللوزتين، والتهاب الجيوب المزمن، والتهاب الفم القلاعي وتقرحاته، وأكدت بعض الأبحاث خاصية العسل كمادة مضادة للتهاب المهبل والإحليل والمثانة.

وفي مجال الطب العقلي فإن حقن محاليل العسل الوريدية يُعد تنويجاً وإتقاناً لأحدث صيغة في المعالجة الطبية لأعقد الحالات المرضية^(١).

ونشرت مجلة العلم التي تصدر في تونس في عددها ٢١ سنة ١٩٧٤ عدة مقالات لمشاهير الأطباء عن المعالجات في العسل منها:

حقن محلول العسل الوريدية في المعالجة السريعة للروماتزم، للدكتور نوفوسلسكي.

استعمال البنج الموضعي العسلي، للدكتور فوينبرغ.

(١) انظر مقدمة كتاب العسل فيه شفاء للناس.

الاستشفاء بالعسل في الأمراض النسائية، معالجة الحكة، للدكتور شولترز ونهوف.

معالجة جروح الحرب بالعسل، للدكتور ثمنوف.

التحريات الإحصائية عن الأثر المانع لسلم النحل على حدوث السرطان عند النحالين، إعداد سعيد القري.

معالجة التسمم الغولي بالعسل، إعداد الكتور رين.

حقن المحاليل العسلية عقب العمليات الجراحية للطبيين محمد نزار الدقر ومروان صباغ.

الاستشفاء بالعسل كمضاد للعدوى، للطبيب محمد البيروتي.

وأخيراً لا بدّ أن أذكر كتاباً ألفته إيفا كرين، رئيسة جمعية أبحاث النحل البريطانية، صدر في عام ١٩٧٥ عن العسل من كل نواحيه.

وقد أنهت المؤلفة الحديث عن الخواص الحيوية للعسل، ومنافعه الطبية بقوله تعالى: ﴿فيه شفاء للناس﴾.

وترجمة ما قالت حرفياً: وهنا ونظراً لأن العسل مفيد على نطاق واسع، وغير مؤذٍ، فإنه يحق لنا بكل تأكيد أن ننهي هذا الفصل بالتعبير من السورة ١٦ من القرآن حينما تكلم عن العسل أنه ﴿فيه شفاء للناس﴾^(١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٦٩] فإن من تفكر في النحل ونظام حياته والعسل الذي يصنعه. لا بدّ أن يؤمن بوجود خالق قادر عليم حكيم جلّ جلاله، ولا بدّ أيضاً أن يدرك عظيم فضله وإحسانه على الإنسان فيما أنعم عليه وسخر له.

التفاوت في الآجال

وبعد الحديث عن نعمة العسل ومصانعه، وما فيها من دلائل، التفتت

(١) المرجع نفسه ص ١٢.

الآيات إلى الناس وهي تواجههم ببعض الحقائق الماثلة في بنيتهم وتكوينهم وأطوار حياتهم:

﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم﴾ بأجال مقدرة مختلفة.

﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ ومنكم من يطول عمره حتى يعود كما كان في بداية حياته ضعيفاً جاهلاً ناقص العقل، وهي أصغر فترات حياته وأخسها، وهي من الآفات التي علمنا النبي ﷺ أن نستعيذ بالله منها، فعن سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه أنه كان يأمر بهؤلاء الخمس، ويحدثهن عن النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر»^(١).

﴿لكي لا يعلم بعد علم شيئاً﴾ أي: لكي يصير إلى حال شبيهة بحال الطفولة في الجهل وسوء الفهم، يغلب عليه فيها النسيان والضعف والخلل، وتتكاثر عليه فيها الأسقام، كما قال تعالى: ﴿ومن نعمه ننكسه في الخلق أفلا يعقلون﴾^(٢).

﴿إن الله عليم﴾ بكل شيء ﴿قدير﴾ [٧٠] على كل شيء، يبدل أحوال مخلوقاته كما يشاء سبحانه.

فلا يتم التفاوت في أحوالهم وآجالهم إلا بمشيئته وقدرته، ولو كان هذا التفاوت بمقتضى الطبائع، كما يقول الملحدون والماديون، لما وجد التفاوت الكبير في أحوال المخلوقات وأعمارها وخصائصها.

وتدل الآية على أن التبدل والتغير من صفات المخلوقات، أما صفات الخالق جلّ وعلا، فلا يلحقها تغير أو تبدل، فعلمه سبحانه أزلي كامل وقدرته أزلية كاملة كسائر صفاته، لا تتغير، كما تتغير قدرة البشر وعلمهم.

(١) صحيح البخاري في كتاب الدعوات رقم ٦٣٧٠.

(٢) يس: الآية ٦٨.

التفاوت في الأرزاق

وكما جعل سبحانه الناس متفاوتين في أعمارهم وآجالهم، جعلهم أيضاً متفاوتين في أرزاقهم، فقال سبحانه:

﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ فوسع الرزق على بعض الناس وضيّقه على آخرين، كما قال سبحانه: ﴿إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾^(١).

والتفاوت في الرزق من نعم الله سبحانه على الناس، فبسببه يتعارفون ويتواصلون ويتبادلون المنافع، وتقوم المجتمعات، وتنشأ الحضارات ويمتد العمران، وصرّح سبحانه بحكمته هذه فقال: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجاتٍ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾^(٢).

فالرزق بيده سبحانه، وتوزيعه بين الناس منوط بمشيئته وحكمته، والأغنياء الذين وسّع الله عليهم أرزاقهم لا يملكون رزق أحد أبداً فرزقهم ورزق غيرهم من الضعفاء والمماليك بيد الله تعالى.

﴿فما الذين فضّلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم﴾ لأنه سبحانه يرزق السادة والعبيد، والملاك والمماليك.

﴿فهم فيه سواء﴾ فالجميع متساوون في كون رزقهم على الله تعالى ومنه سبحانه، وما يقدمه السيد لعبده من رزق، هو في الحقيقة من رزق الله تعالى، قدّره سبحانه للعبد في مال سيده، وكذلك ما يقدمه الغني من مال للفقير، ليس إلا الرزق الذي قدّره سبحانه وفرضه للفقير في مال الغني، فالسيد والغني ليسا سوى وسائل مسخرة لإيصال رزق الله تعالى إلى من شاء من عباده.

﴿أفنبعمة الله بحدود﴾ [٧١] فلا ينبغي لأحد أن يجحد فضل الله تعالى

(١) الإسراء: الآية ٣٠.

(٢) الزخرف: الآية ٣٢.

عليه فيما رزقه وقدر له ، ولا ينبغي أيضاً لأحد أن يرى لنفسه فضلاً على غيره في الرزق ، لأن الرزاق الحقيقي هو الله تعالى وحده .

نعمة الزواج والحياة العائلية

وأضافت الآيات إلى كل ما تقدم من النعم ، نعمه سبحانه على الناس فيما يسر لهم من أسباب بناء الحياة الاجتماعية بينهم ، وذلك بالتزاوج والتناسل ، وبناء الحياة الزوجية والعائلية على المحبة والمودة :

﴿والله جعل لكم من أنفسكم﴾ أي : من جنسكم ونوعكم ﴿أزواجاً﴾ لتأنسوا بها ، وتسكنوا إليها ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾^(١) .

﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ أي : أولاداً وأولاد أولاد .

﴿ورزقكم من الطيبات﴾ المستلذات النافعات ، فكيف بعد كل هذه النعم الجليلة تؤمنون بغيره سبحانه؟! .

﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ وكل ما سوى الله تعالى باطل ، كما جاء في قول الشاعر :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وهي أصدق كلمة قالها شاعر ، فعندما سمعها ﷺ قال : «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(٢) .

﴿وبنعمت الله هم يكفرون﴾ [٧٢] أي : هم يجحدون .

فعبادتهم غيره سبحانه تدل على إيمانهم بالباطل وجحودهم لنعمه سبحانه وفضله : ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض

(١) الروم : الآية ٢١ .

(٢) صحيح مسلم في كتاب الشعر رقم ٢٢٥٦ .

شيئاً ﴿لأن الرزق بيده سبحانه وحده، كما مر معنا من قريب، فلا أحد غير الله تعالى يملك شيئاً من الرزق في السماء أو في الأرض.﴾

﴿ولا يستطيعون﴾ [٧٣] فكما أنهم لا يملكون شيئاً من الرزق، فلا يستطيعون أيضاً إنزال شيء من رزق السماء أو إخراج شيء من رزق الأرض، إلا بمشيئته تعالى وتقديره.

وتؤكد الآية ما سبق تقريره في السورة بأن شكر الله تعالى على نعمه، يستوجب عبادته وحده، وأن من يعبد غيره لا يكون شاكراً له تعالى أبداً.

ولهذا ختم الله تعالى عرض المجموعة الثانية من النعم بالنهي القطعي عن أي مظهر من مظاهر الشرك، فقال:

﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ أي: لا تجعلوا له شركاء، أو لا تجعلوا له مثلاً تشركونه به سبحانه، فهو لا مثل له ولا شبيه ولا شريك، كما قال جلّ وعلا: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾^(١).

فالخلق كلهم عبيده وفي ملكه، فلا تشبهوا الخالق بال مخلوق، والرازق بالمرزوق، والقادر بالعاجز.

﴿إن الله يعلم﴾ قبح أعمالكم وعِظَم جرائمكم، وسيعاقبكم عليها أوفى عقاب. ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ [٧٤].

المثل الأول

ثم ضرب سبحانه مثلين يبين للمشركين فيهما قبح شركهم وشناعته: ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء﴾ بسبب عجزه وضعفه ﴿ومن رزقناه منا رزقاً حسناً﴾ أي: وعبداً أنعمنا عليه، وأعطيناه رزقاً طيباً كثيراً.

﴿فهو ينفق منه سراً وجهراً﴾ فهو يستعمل نعم الله تعالى عليه في مساعدة الناس في جميع الأحوال والأوقات.

(١) الشورى: الآية ١١.

﴿هل يستون﴾ أي: هل يتساوى المتصفون بهذه الأوصاف المتباينة من
الفريقين؟ فالعبد الفقير العاجز لا يستوي مع الغني الكريم المنفق، مع أنها
يتفكان في البشرية والمخلوقية والاحتياج إلى فضل الله ورزقه، فما ظنكم برب
العالمين عندما تشركون به الأصنام، وتجعلونها تساوي القوي القادر القاهر في
استحقاق العبادة والطاعة.

﴿الحمد لله﴾ كله لله تعالى المتصف بكل صفات الكمال والجلال، فلا
يستحقه أحد سواه.

﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ [٧٥] أنه وحده سبحانه المنعم المتفضل، وأن
كل ما سواه ليسوا سوى وسائط مسخرة بمشيئته وقدرته جلّ جلاله.

المثل الثاني

﴿وضرب الله مثلاً﴾ آخر يدل على ما دل عليه المثل السابق على وجه
أظهر وأوضح^(١).

﴿رجلين أحدهما أبكم﴾ أي: أخرس خلقته، فهو لا يسمع.
﴿لا يقدر على شيء﴾ وهو أيضاً لا يقدر على فعل أي شيء لنفسه أو
لغيره، بسبب شدة عجزه.

﴿وهو كلٌّ على مولاه﴾ أي: وهو ثقيل على من يلي أمره ويعوله ﴿أينما
يوجهه لا يأت بخير﴾ أي: إذا ما وجهه في قضاء أي حاجة، لا ينجح ولا يفلح.
فمن كان هذا حاله في العجز والضعف ﴿هل يستوي هو ومن يأمر
بالعدل﴾ لأن من يأمر بالعدل لا بد أن يكون ذا قوة في جسمه، وذا رشد في
عقله ودينه.

﴿وهو﴾ في نفسه أيضاً ﴿على صراطٍ مستقيم﴾ [٧٦] أي: على هداية
واستقامة ورشد، لا يحتاج إلى موجه ومرشد.

(١) انظر روح المعاني ١٤/١٩٦.

ويقال هنا كما قيل في المثل السابق: فكما أن التباين بين الرجلين واضح،
وأنها لا يستويان مع اتفاقهما في الصورة والخلقة البشرية، فبالأولى ألا تستوي
الأصنام العاجزة عن النطق والحركة والمحتاجة إلى من يحملها وينظفها في
استحقاق العبادة مع الله تعالى القوي القادر القاهر جلّ وعلا.

فله سبحانه كمال العلم والقدرة، لا يعزّب عن علمه شيء في السماوات
والأرض ﴿ولله غيب السمّوات والأرض﴾ لا يخفى عليه شيء، في السماوات
والأرض مما غاب عن العباد، وسع سبحانه كل شيء علماً، لا تخفى عليه خافية
﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر﴾ وما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته إلا
كلمح البصر لكمال قدرته جلّ وعلا.

﴿أو هو أقرب﴾ أي: بل هو أقرب من لمح البصر، ولا تنافي بين
التشبيهين، لأن المراد بيان سرعة تحقق مراده تعالى، لا بيان زمان وقوعه.

﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ [٧٧].

الفصل الرابع
المجموعة الثالثة

الإخراج من البطن

وعادت الآيات مرة ثالثة إلى تذكير الناس ببعض نعم الله تعالى عليهم، وبدأت من نعمة إخراج الإنسان من بطن أمه، قال تعالى:

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم﴾ في الوقت المقدر بحكمته ومشيته لخروجكم، وذلك حين يستكمل الجنين نموه، ويصبح في حالة يمكنه معها العيش خارج رحم أمه، وهو القدر المعلوم الذي ذكره سبحانه في قوله: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ فجعلناه في قرارٍ مكينٍ * إلى قدرٍ معلومٍ * فقدرنا فنعم القادرون﴾^(١).

وتسمى عملية خروج الجنين من بطن أمه المخاض، وهي تنطوي على أدلة باهرة على كمال حكمة المولى سبحانه وقدرته، وتدل على رحمته سبحانه وفضله على الإنسان، بما يسر له من أسباب الخروج من بطن أمه بسلام، كما في قوله تعالى: ﴿ثم السَّيْلُ يَسْرُهُ﴾^(٢).

فمن رحمته تعالى وحكمته أنه جعل حوض الأم يشبه قناة مفصلة تفصيلاً دقيقاً على قياس رأس الجنين عند تمام الحمل، وعندما يبدأ المخاض، ويبدأ الرحم بالتقلص دافعاً رأس الجنين شيئاً فشيئاً إلى الأسفل، الذي يندفع باتجاه الحوض بأوضاع معينة ومقدرة بدقة، حتى يحصل ما يسميه الأطباء بالتدخل، وهو اجتياز رأس الجنين لدخل الحوض الأعلى، ولا يحصل التدخل إلا إذا تقدم الرأس بالعرض، لأن أقطار المضيق العلوي عرضانية.

(١) المرسلات: الآيات ٢٠ - ٢٣.

(٢) عبس: الآية ٢٠.

ولا بدّ بعد ذلك أن يدور رأس الجنين، وهو في الحوض، حتى يتناسب مع أقطار مضيق الحوض السفلي الطولانية، وعملية الدوران محسوبة بتقدير الله تعالى بدقة، وقد جعل الله تعالى من أجلها القناة الحوضية أشبه بأسطوانة ملساء، وجعل فيها شوكين عظميين بارزين، فإذا استمرت تقلصات الرحم تدفع رأس الجنين شيئاً فشيئاً إلى الأسفل، حتى يصطدم بالشوكين المذكورين، اللذين يوجهانه بحيث يدور، وتتطابق أقطاره مع أقطار المضيق السفلي.

هذه هي الحكاية، كما قال الطبيب المتخصص بالحمل والولادة، رأس يتدخل بالعرض، ثم يدور في الحوض، ويتخلص منه بالطول، ولولا أن الحوض قد أعد على قياسه بعناية لما أمكنت الولادة، حتى إن الرأس إذا كان صغيراً، فإنه يمر بسرعة أكبر، وكثيراً ما تعرضه هذه السرعة للرّض والنزف الدماغي...

والسؤال الذي ما زال يحير الأطباء هو: كيف تبدأ آلام المخاض؟ وتحصل الولادة الطبيعية في الوقت المناسب؟ ما هو السبب؟ ولماذا يبدأ الرحم تقلصات التي لا تتوقف حتى ولادة الوليد؟^(١).

والجواب على تساؤل الأطباء هنا في قوله تعالى ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم﴾ فبأمره تعالى يتقلص الجنين، ويمشيئته النافذة في ذرات الموجودات، وحكمته الباهرة، تتم عملية إخراج الجنين من بطن أمه.

وسائل التمكين

﴿لا تعلمون شيئاً﴾ أي: أخرجكم من بطون أمهاتكم وأنتم لا تعلمون شيئاً، ولا تقدرون أيضاً على شيء، في غاية الجهل والضعف، وفي أشد حالات الافتقار، فأمركم الله تعالى بمعونته ورحمته، التي أحاطكم بها منذ بداية وجودكم في أرحام أمهاتكم.

(١) انظر القرار المكين ص ٧٩ - ٨٠.

﴿وجعل لكم السَّمْع والأبصار والأَفْئدة﴾ وهي وسائل التمكين، التي تمكن الإنسان أن يدرك ما حوله من المخلوقات، وما فيها من دلائل تدله على وجود الله تعالى ووحدانيته، فهي من النعم الجليلة على الإنسان، تستوجب منه شكراً خاصاً خالصاً لله تعالى عليها.

﴿لعلَّكم تشكرون﴾ [٧٨].

وأول ما يقتضيه هذا الشكر استعمال هذه الوسائل في الاستدلال على وجود الله تعالى والإيمان به وتوحيده جلَّ جلاله.

ولهذا قال سبحانه منبهاً على دليل من أدلة وجوده وعظمته وقدرته: ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء﴾ أي مذلات ومهيئات للطيران في الجو.

﴿ما يمسكهن إلا الله﴾ ما يمنعهن من السقوط إلا الله تعالى بقدرته وحكمته، فقد خلق سبحانه في أجسام الطير وفي الجو الأسباب التي تمكن الطير من الطيران، ولما هدى الله الإنسان إلى هذه الأسباب، بوسائل التمكين التي زوده بها، السمع والأبصار والأَفْئدة، واكتشف النواميس الدقيقة الكونية المحيطة بالأرض، تمكن بفضل الله تعالى من صنع الطائرات، والاستفادة منها في الركوب والحمل، فالفضل لله تعالى أولاً وآخرأ.

﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ﴾ دالة على كمال قدرته وحكمته ورحمته.

﴿لقومٍ يؤمنون﴾ [٧٩] يصدقون بوجود الله تعالى ووحدانيته.

نعمة المساكن والأثاث

ومن نعم الله تعالى على الإنسان أن هيا له كل ما يحتاج إليه من أسباب الراحة الجسدية والنفسية في حياته، فقال سبحانه في معرض الامتنان على الإنسان: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ لراحة أبدانكم واطمئنان نفوسكم، فهو سبحانه الذي خلق المواد الأولية من الحجر والمدر والخشب والحديد، وغير ذلك من المواد التي يحتاج إليها الإنسان في بناء المساكن، وهده

سبحانه أيضاً إلى أساليب بنائها وعمارتها، بحيث يجد فيها كل ما يحتاج إليه من الراحة الجسدية والنفسية.

وأنعم عليه سبحانه أيضاً ببيوت أخرى متنقلة، يحتاج الإنسان إليها في أسفاره ورحلاته.

﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها﴾ أي: يخف عليكم حملها ونقلها ﴿يوم ظعنكم﴾ أي يوم سيركم ورحيلكم.

﴿ويوم إقامتكم﴾ أي وتخف عليكم أيضاً في يوم إقامتكم، فلا يثقل عليكم إقامتها وتشيدها.

﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها﴾ أي: وجعلكم تتخذون من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها ﴿أثاثاً﴾ لبيوتكم كالفرش والبسط والوسائد وغير ذلك ﴿ومتاعاً﴾ تتمتعون بها وتنفعون بها ﴿إلى حين﴾ [٨٠] تبلى وتنفى، أو إلى حين انقضاء آجالكم وموتكم.

نعم الحماية والوقاية

﴿والله جعل لكم مما خلق﴾ من الجبال والأشجار والصخور وغيرها ﴿ظلالاً﴾ تستظلون بها من حر الشمس ووهجها، وهي نعمة عظيمة يعرف قيمتها وضرورتها أهل المناطق الحارة على وجه الخصوص.

وقد اكتشف العلماء في العصر الحاضر وجود طبقات كثيفة، تحيط بالأرض، تظللها وتحميها من بعض الأشعة الكونية المؤذية القاتلة منها طبقة الغلاف الأوزوني، الذي أقلق العلماء، وأقضى مضاجعهم الثقب الذي حدث فيه، بسبب سوء استعمال الناس في العصر الحاضر لبعض نعم الله تعالى وإسرافهم فيها.

﴿وجعل لكم من الجبال أكنناً﴾ أي: معاقل وحصوناً تحصنون فيها من شدة الحر والسيول والفيضانات والأعاصير.

﴿وجعل لكم سراويل تقيكم الحر﴾ أي: والبرد أيضاً، وهي القمصان

والثياب المصنوعة من القطن والكتان والصوف، لكي تحمي أجسامكم من الحر والبرد.

﴿وسراييل تقيكم بأسكم﴾ أي: وجعل لكم الدروع التي تحميكم في أثناء القتال من ضربات عدوكم.

فالله سبحانه هو المنعم بهذه النعم، ألا ترى كيف من الله تعالى على نبيه داود عليه السلام بإلانة الحديد له، وتعليمه صناعة الدروع فقال: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾^(١).

وقال أيضاً: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد﴾ أن اعمل سابغاتٍ وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير﴾^(٢).

تمام النعم

﴿كذلك يتم نعمته عليكم﴾ أي: كما أنعم عليكم بهذه النعم الجليلة، التي تحتاجون إليها في حياتكم ومعاشكم، ينعم عليكم أيضاً بنعمة أخرى، هي أجل وأعظم من جميع ما ذكر، وبهذه النعمة يتم فضل الله تعالى عليكم، هذه النعمة هي نعمة الإسلام وإنزال الوحي بالقرآن، وهي النعمة العظمى التي تبقى النعم بدونها ناقصة، فلا تتم إلا بها، لأنها تبين للناس كيف يشكرون الله تعالى على نعمه، وكيف يصلون إلى رحمته ورضوانه، ولهذا أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ عشية يوم عرفة في حجة الوداع قوله الكريم: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾^(٣) فهل تقبلون هذه النعمة العظيمة، وترضون بما رضىه لكم، وتنفقون لأمره، وتسلمون لأحكام شرعه.

﴿لعلكم تسلمون﴾ [٨١] فتسلمون.

(١) الأنبياء: الآية ٨٠.

(٢) سبأ: الآيتان ١٠ - ١١.

(٣) المائدة: الآية ٣.

أم تعرضون عن دينه وشرعه، وتجددون فضله؟ ﴿فإن تولّوا﴾ أي: أعرضوا عن دعوتك يا محمد ﷺ، ﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾ [٨٢]، فليس عليك عتب في تقصير، فقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، فلا يضرك إعراضهم، ولا تحزن عليهم.

إن إعراضهم عن دين الله وشرعه أمر عجيب مستقبح مستنكر. ﴿يعرفون نعمة الله﴾ فيقرون أنها من الله تعالى، حكى الله تعالى ذلك عنهم في عدة مواضع في القرآن الكريم، منها: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ * الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم * ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ (١).

ومع إقرارهم بتركها، فيعرضون عن دعوة نبيه ﷺ ويعبدون غيره ﴿ثم ينكرونها﴾ فلا فائدة من إقرارهم بفضل الله عليهم إلا إذا انقادوا لدينه ورضوا بشريعته واتبعوا نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ [٨٣] الجاحدون المعاندون.

من مشاهد يوم القيامة

ولا يصلح لهذا العناد والجحود إلا أسلوب الإنذار والوعيد، ولهذا اتجهت الآيات إلى عرض بعض المشاهد المخيفة المرعبة في يوم القيامة:

﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً﴾ يشهد عليهم، أن رسالة الله تعالى قد بلغتهم، وأن حجته تعالى قد قامت عليهم، وهذا الشاهد هو النبي الذي أرسل إليهم، وسيدنا محمد ﷺ هو نبي الأمة المسلمة والشاهد عليها، كما قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ * يومئذ يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾ (٢).

(١) العنكبوت: الآيات ٦١ - ٦٣.

(٢) النساء: الآيتان ٤١ - ٤٢.

﴿ثم﴾ بعد ذلك ﴿لا يؤذن للذين كفروا﴾ في الكلام والاعتذار، كما في قوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾^(١).

﴿ولا هم يستعتبون﴾ [٨٤] أي: لا يكلفون أن يرضوا ربهم في ذلك اليوم، لأن الآخرة ليست دار تكليف^(٢) فطلب الرضا منسد عليهم، كما قال تعالى: ﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾^(٣) ومن قوله ﷺ وهو يناجي ربه: «لك العتبي حتى ترضى»^(٤).

ومشهد ثان من مشاهد الوعيد والتهديد:

﴿وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم﴾ ليرتاحوا منه، ولو لفترة قصيرة ﴿ولا هم ينظرون﴾ [٨٥] أي: ولا يؤخر عنهم العذاب ولا يمهلون.

والمشهد الثالث مشهد المواجهة بين عامة الكفار وبين رؤسائهم في الكفر والضلال:

﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ الذين أطاعوهم، وساروا وراءهم، وقلدوهم، واتبعوا القوانين والشرائع التي ابتدعوها لهم ﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك﴾ أي: الذين فتنا عن طاعتك وعبادتك بطاعتهم وعبادتهم، كأنهم يسألون الله تعالى أن يضاعف في عذابهم، وقد ذكر ذلك صريحاً في آيات منها: ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾^(٥).

ويرد زعماء الكفر والضلال على أتباعهم مكذبين لهم، ملقين تبعة ضلالهم على أنفسهم: ﴿فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾ [٨٦] لأنكم ما عبدتمونا

(١) الرسائل: الآيتان ٣٥ - ٣٦.

(٢) تفسير الخازن ٣/٦٣٢.

(٣) فصلت: الآية ٢٤.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/٤٨.

(٥) الأحزاب: الآية ٦٨.

في الحقيقة، بل عبدتم أهواءكم وشهواتكم، فمسؤولية ضلالكم نابعة من نفوسكم، وهو ما يشير إليه الشيطان عندما يقول لأهل النار يوم القيامة: ﴿وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ الآية^(١).

﴿وآلقوا إلى الله يومئذ السُّلَم﴾ أي أعلنوا انقيادهم واستسلامهم لله تعالى في يوم القيامة، بعد التجبر والتكبر والعناد والجحود.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [٨٧] وبطلت وضاعت جميع افتراءاتهم وأكاذيبهم، فعندما تظهر الحقائق ويشرق نورها تتلاشى الأكاذيب وتضمحل، كما يتلاشى الزبد وينطفئ بعد أن كان فوق الماء منتفخاً منتفخاً.

ثم بعد هذه المواجهة بين عامة الكفار وبين رؤسائهم ذكر سبحانه أنه قدّر لرؤوس الكفر والضلال زيادة في العذاب على غيرهم: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُوا﴾ غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بمعارضتهم لانتشار دين الله تعالى، وسعيهم في نشر الكفر والضلال ﴿زَدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ الذي يستحقونه على كفرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ﴾ [٨٨] أي بسبب سعيهم في نشر الفساد بين العباد، فالصد عن دين الله تعالى أعظم أسباب الفساد في البلاد.

وأهل النار متفاوتون في دركاتهما، كما أن أهل الجنة متفاوتون في منازلها ودرجاتها.

(١) إبراهيم: الآية ٢٢.

الفصل الخامس

مَوَاسَاةٌ وَتَشْبِيهُ

الشرعة الكاملة

ولما انتهت الآيات من تذكير الناس ببعض نعم الله تعالى عليهم من خلال المجموعات الثلاث، وختمتها ببيان أن تمام النعم في الانقياد لله تعالى وحده، والاستسلام لحكمه وشرعه، وتوعدت الجاحدين بعرضها لبعض مشاهد العذاب يوم القيامة، شرعت تواسي النبي ﷺ عما يلقي من جحود المشركين وعنادهم، وثبتت المؤمنين وهم يواجهون أذى المشركين وعدوانهم.

استهلت الآيات هذا الفصل بتكرير ما سبق ذكره، بأن كل رسول يشهد على أمته يوم القيامة، فقد ذكرته هناك في معرض التهديد والوعيد للمنكرين الجاحدين، وذكرته هنا في معرض مواساة النبي ﷺ، وبيان فضل الله تعالى عليه بما أكرمه به:

﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم﴾ أي: منهم، فكل نبي بعث من قومه إليهم.

﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ أي: على قومك وأمتك، التي هي خير الأمم وأعظمها، والتي اجتباها الله تعالى واختارها من بين الأمم لتحمل أعظم رسالة وأكملها وأشملها، وهي رسالة الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ الآية^(١).

(١) الحج: الآية ٧٨. انظر بَسْط هذا الموضوع في كتاب: الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج.

وكما أكرمه سبحانه بمقام الشهادة على أعظم الأمم، أكرمه أيضاً بالرسالة الكاملة الشاملة، رسالة الإسلام والقرآن:

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً﴾ بياناً كاملاً ﴿لكل شيء﴾ من أمور الدين والتشريع، فهو الطريق القاصد الذي تكفل الله تعالى ببيانه في صدر السورة عندما قال: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾.

ففي القرآن الكريم الدين الكامل والشرعية التامة نصاً وأصلاً، وما من حكم يحتاج إليه الناس إلا له في القرآن الكريم نصٌ صريحٌ فيه أو أصلٌ يتفرع منه.

وتدخل السنة الشريفة كلها في آية واحدة من آياته، وهي قوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾^(١).

وكل علوم الدين والشرعية من أصول وفروع، ورواية ودراية، تدور في فلك آياته ومعاني كلماته التي لا تنتهي.

﴿وهديّ ورحمةً وبشرى للمسلمين﴾ [٨٩] وفي القرآن الكريم أيضاً أسباب الهداية إلى طريق السعادة، وأسباب استئزال رحمة الله تعالى والوصول إلى رضوانه وجنته، فضلاً عما فيه من بشائر للمسلمين، فكلما واجهتهم المصائب والنكبات ونزلت بهم المحن، وجدوا في كتاب الله تعالى الروح والراحة لقلوبهم ونفوسهم، فالتمسك به عصمة للمسلم من الخطأ والزلل، ونجاة له من الهموم والأحزان والمحن، فهو بر الأمان وسلم النجاة، من تمسك به سلم، ومن عمل به أمن، اللهم اجعل القرآن ربيع صدورنا ونور قلوبنا وذهاب همومنا وجلاء أحزاننا.

العدل في الإسلام

وتأكيداً لكمال شريعة القرآن ذكرت الآيات أصلاً من أصوله الكبرى

(١) الحشر: الآية ٧.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ وهو الإنصاف، ومن الإنصاف الإقرار بنعمه سبحانه علينا، وشكره عليها، فشكر الله وحده هو العدل، وشكره سبحانه لا يكون إلا بتوحيده وطاعته وحده والإعراض عمن سواه، فيلزمنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولذلك قال من قال: العدل في هذا الموضع شهادة أن لا إله إلا الله، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه^(١).

ومن العدل إخلاص العمل لله تعالى وحده، قال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله تعالى^(٢).

ومن العدل أيضاً التسوية في الحقوق فيما بين الناس، وترك الظلم وإيصال كل ذي حق إلى حقه^(٣) والعدل بهذا المعنى أمر الله تعالى به في آيات كثيرة منها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٤) ومنها أيضاً: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٥).

ومن العدل أيضاً التوسط والاعتدال في شؤون الحياة من غير إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، فدين الله تعالى بين الغالي والمقصر، والشرعية الإسلامية قائمة على أساس التوسط والاعتدال بين مطالب الدنيا والآخرة، ومطالب الروح والجسد، وهذه الميزة تجعلها تتفق مع الإنسان، وتلبي حاجاته التشريعية في كل زمان ومكان.

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ الآية^(٦) وقال أيضاً: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ

(١) انظر تفسير الطبري ١٣/١٠٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٤٣.

(٣) تفسير النسفي ٣/٦٣٤.

(٤) النساء: الآية ٥٨.

(٥) المائدة: الآية ٨.

(٦) البقرة: الآية ١٤٣.

عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴿١﴾ وقال أيضاً: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾ ﴿٢﴾ وقال أيضاً: في معرض الثناء على المؤمنين: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ ﴿٣﴾.

وقال ﷺ: «سدّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يدخل الجنة أحداً عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه، وإن قلَّ» ﴿٤﴾.

الإحسان

﴿والإحسان﴾ أي: ويأمر سبحانه بالإحسان أيضاً، ويكون في العبادات والمعاملات:

فالإحسان في العبادات أن تؤدي تامة على الوجه اللائق، كما جاء في الحديث الشريف عندما سئل النبي ﷺ: «ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» الحديث ﴿٥﴾.

وهذا الإحسان من حيث الكيفية، وأما من حيث الكمية فيكون بأداء نوافل العبادات الجارية لما يوجد من نقص في الواجبات.

والإحسان في المعاملات بالتجاوز عن الناس والتفضل عليهم والعفو عنهم فالعدل الإنصاف، والإحسان التفضل، وأعلى مراتبه العفو عند المقدرة والإحسان إلى المسيء، وهو بهذا المعنى مندوب في الإسلام، قال تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ ﴿٦﴾.

(١) الأعراف: الآية ٣١.

(٢) القصص: الآية ٧٧.

(٣) الفرقان: الآية ٦٧.

(٤) صحيح مسلم في كتاب المنافقين رقم ٢٨١٨.

(٥) متفق عليه، انظره كاملاً في صحيح البخاري كتاب الإيمان رقم ٥٠.

(٦) آل عمران: الآية ١٣٤.

ولما أنزل الله على النبي ﷺ قوله الكريم: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾^(١) قال ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك»^(٢).

وسياتي إن شاء الله تعالى مزيد تفصيل لهذا المعنى في آخر السورة عند قوله تعالى: ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾.

﴿وإيتاء ذي القربى﴾ أي: ويأمر بإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه، وصلتهم، والإحسان إليهم.

فهو تخصيص بعد تعميم، يدل على اهتمام الإسلام بتقوية الصلات الاجتماعية بين الناس، وخاصة بين الأقارب، فللقريب في الإسلام حق واجب على قريبه، بصريح قوله تعالى: ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً﴾^(٣).

المنهيات الثلاثة

ثم أوردت الآية في مقابل هذه المأمورات الثلاثة، ثلاثة منبهات: ﴿وينهى عن الفحشاء﴾ أي: ينهى سبحانه عن الأعمال الفاحشة المفرطة في القبح كالزنى، الذي نهى عنه ووصفه بقوله: ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾^(٤).

﴿والمنكر﴾ أي: وينهى أيضاً عن المنكر، وهو يعم جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها.

﴿والبغي﴾ أي: وينهى أيضاً عن البغي، وهو الكبر والظلم والحقد

(١) الأعراف: الآية ١٩٩.

(٢) رواه الطبراني مرسلاً وابن مردويه موصولاً كما في فتح الباري ٣٠٦/٨.

(٣) الإسراء: الآية ٢٦.

(٤) الإسراء: الآية ٣٢.

والتعدي، وحقيقته تجاوز الحد، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره^(١).

فكما اهتم الإسلام بإيتاء ذي القربى لما له من آثار إيجابية طيبة في تقوية العلاقات الاجتماعية بين الناس، اهتم كذلك في المنهيات بالبغي، لما له من آثار سلبية في القطيعة والتهاجر والاختلاف بين أبناء المجتمع الواحد.

فالآية الكريمة بأوامرها ومنهياتها، تربي الفرد، وتهدب نفسه، ليصبح عضواً صالحاً نافعاً في مجتمع قوي متماسك، فهي أصل كبير من أصول الإسلام، جاءت في سياق قوله تعالى ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾، كبرهان عملي على أن القرآن الكريم قد اشتمل على كل ما يحتاج إليه الناس في أمور دينهم وعلاقتهم مع ربهم سبحانه، وعلاقاتهم فيما بينهم، حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية، لكفت في كونه تبياناً لكل شيء^(٢).

ولهذا ختمها سبحانه بقوله:

﴿يعظكم﴾ بما يأمركم وينهاكم ﴿لعلكم تذكرون﴾ [٩٠] فضل الله عليكم فشكروه على نعمه وإحسانه، بطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

الثبات على الإسلام والوفاء بعهده

وبعد هذه المواساة والتكريم للنبي ﷺ، التفتت الآيات إلى المؤمنين تثبتهم على الطريق المستقيم القاصد، وتحثهم على التمسك بعهد الإيمان ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ أي: اثبتوا على الإسلام الذي التزمت به طائعين، حينما أجبتم دعوة رسول الله ﷺ، فمبايعته مبايعة لله تعالى، كما في قوله عز شأنه: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على

(١) تفسير القرطبي ١٠/١٦٧.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/١٣٦.

نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً^(١).

﴿ولا تنقضوا الأيمان﴾ أيمان البيعة ﴿بعد توكيدها﴾ أي بعد توثيقها على اسم الله تعالى ﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾ شاهداً ورقياً.

﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾ [٩١] من نقض للعهد، وعدم الوفاء به، فيجازيكم عليه، فاثبتوا على الإيمان، وتمسكوا بالإسلام.

﴿ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً﴾ أي: ولا تكونوا كالمرأة الحمقاء التي كلما غزلت شيئاً من الصوف أو الور، وأحكمتها نقضته وفرقته.

﴿تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم﴾ وبهذا تجعلون عهودكم ومواثيقكم وسيلة للمكر والخديعة والفساد بينكم.

﴿أن تكون أمة﴾ هي أربى من أمة ﴿أي: بسبب أن المشركين كانوا أكثر عدداً ومالاً من المسلمين.

فهم سَيِّء

وهو ما يفعله كثير من ضعاف الإيمان من المسلمين في العصر الحاضر، يرون غنى الكفار وقوتهم، وضعف المسلمين وفقرهم، فيفتنون عن دينهم، ويرتدون إلى الكفر، وما علموا أن هذا الضعف والفقر ليس بسبب كونهم مسلمين، فالإسلام دين العلم والقوة، وما تخلّف المسلمين إلا بسبب سوء فهمهم لحقيقة دينهم، وانصرافهم عن كثير من أحكام شريعته، وما علموا أيضاً أن هذا التفاوت بين الأمم والشعوب هو ابتلاء من الله تعالى وامتحان، كالتفاوت الذي جعله سبحانه بين الأفراد في الأرزاق والمواهب والملكات، ولهذا قال سبحانه: ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ أي: إنه تعالى يختبركم ويمتحنكم بهذا التفاوت بينكم وبين الكفار، ليظهر الثابت على إيمانه والتمسك بدينه، من الذي يغتر بقوة الكفار وغناهم، فيفتن عن دينه، ويرجع القهقري إلى الكفر والشرك،

(١) الفتح: الآية ١٠.

فالتفاوت بين الأمم والشعوب أحوال عارضة لا تدوم، والأيام دول، يوم لك ويوم عليك، والعطاء والرزق منوط بأسباب، هي بمثابة المفاتيح له، وهي العلم والعمل والجد والسعي، فمن حصل عليها، واستفتح بها رزق الله تعالى، فتح الله له، سواء كان مؤمناً أو كافراً: ﴿كَلَّا نُمَدِّهُوَ لَاءَ وَهُوَ لَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^(١) فمتى يفقه المسلمون هذه الحقائق، ويتمسكون بدينهم، ويقبلون بجد وعزم على العلم والعمل في ظل شريعة دينهم؟. بهذا فقط يلحقون ركب الأمم التي سبقتهم، ويتقدمون عليهم. ثم ختم الله سبحانه الآية متوعداً فقال:

﴿وَلَيَبْيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [٩٢] فيظهر المحق من المبطل، ويجازيكم بأعمالكم ثواباً وعقاباً.

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ فهو سبحانه قادر على أن يجعل جميع الناس متساوين في القوة والرزق والدين، ولكنه سبحانه جعل الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، وجعل التفاوت والتباين بين الأفراد والأمم من أسباب الابتلاء والاختبار.

﴿ولكن يضل من يشاء﴾ ممن علم سبحانه خبث طويته وسوء نيته، كما قال جلّ وعلا في موضع آخر: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به الفاسقين﴾^(٢).

﴿ويهدي من يشاء﴾ ممن علم سبحانه طيب نفسه وصفاء سريرته كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿ويهدي إليه من أناب﴾^(٣) وذلك بأن يوفقه إلى معرفة الحق، ويشرح صدره للانتفاع بدلائله وآياته، فالابتلاء والاختبار في الدنيا، والحساب والجزاء في الآخرة: ﴿ولتسألن عما كنتم تعملون﴾ [٩٣] بكسبكم واختياركم.

(١) الإسراء: الآية ٢٠.

(٢) البقرة: الآية ٢٦.

(٣) الرعد: الآية ٢٧.

التحذير من زلة القدم

نزلت هذه الآيات في مكة المكرمة، عندما كان الصحابة رضي الله عنهم يتعرضون لأقسى أنواع العذاب والأذى، بسبب إيمانهم واستجابتهم لدعوة النبي ﷺ، فكانوا في أمس الحاجة إلى مثل هذه الآيات لكي تثبتهم وتشد عزائمهم، ولهذا عادت الآيات مرة ثانية تأمرهم بالثبات على عهود الإيمان وتحذره من نقضها إلا أنها في هذه المرة بينت لهم ما يترتب على نقضها من عواقب سيئة وخيمة:

﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم﴾ أي لا تعقدوا الأيمان، وتدخلوا في عهد الإسلام، وأنتم تريدون الخديعة والفساد، فإن عدم الإخلاص يؤدي إلى عدم الثبات، والانحراف عن طريق الحق.

﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾ أي تنتقلون من خير إلى شر، لأن القدم إذا زلت، نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر، والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية، أو ساقط في ورطة: زلت قدمه^(١).

﴿وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله﴾ وبزلة القدم هذه تقعون في السوء بسبب إعراضكم وإنصرافكم عن دين الله تعالى، وهذا في الدنيا، وأما في الآخرة ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ [٩٤].

أهم أسباب الردة

ولما كان التعلق بشهوات الدنيا أهم أسباب الفتنة والردة عن الدين، اتجهت الآيات إلى تزهيد المؤمنين بشهوات الدنيا العاجلة الفانية ورفع همهم وقلوبهم لتتعلق بما عند الله تعالى من النعيم الدائم في الجنة: ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾ أي: لا تتركوا عهد الله تعالى، وتأخذوا بدله عوضاً من شهوات الدنيا، وهو مهما بلغ قليل وحقير بجانب ما عند الله تعالى من النعيم والثواب المقيم، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل

(١) تفسير القرطبي ١٧٢/١٠.

المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل»^(١).

﴿إنما عند الله هو خير لكم﴾ من الدنيا بما فيها، لأنها زائلة منتهية، ولا تصفو من كدر ﴿إن كنتم تعلمون﴾ [٩٥] أي: إن كنتم من أهل العلم والفهم والتمييز.

﴿ما عندكم ينفد﴾ ينقضي ويزول مهما كثر عدده وطال أمده.
﴿وما عند الله﴾ من النعيم ﴿باق﴾ لا نفاد له ولا انتهاء، كما قال سبحانه في معرض الحديث عن نعيم الجنة ﴿إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾^(٢) بل هو في ازدياد، كما في قوله أيضاً: ﴿لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾^(٣).

وبعد أن زهدهم سبحانه بشهوات الدنيا ورغبتهم بنعيم الآخرة، وعدهم بالأجر العظيم والثواب الجزيل إن ثبتوا وصبروا، فقال:

﴿ولنجزي الذين صبروا﴾ على العهد، وثبتوا على طريق الحق، وتحملوا الأذى والاضطهاد من أجل دينهم.

﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [٩٦] من الأعمال الصالحة إذ يعطيهم الله سبحانه الثواب بحسب أحسن أعمالهم التي تقربوا بها إليه في الدنيا.

الحياة السعيدة الطيبة

وفي سياق الترغيب بين سبحانه أن الحياة السعيدة الطيبة لا تكون إلا في ظلال الإيمان والعمل الصالح، فقال:

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى﴾ فالمرأة في هذا كالرجل ﴿وهو مؤمن﴾ بشرط الإيمان، فلا قيمة لأي عمل صالح بدون الإيمان بالله تعالى،

(١) صحيح مسلم في كتاب الإيمان رقم ١١٨.

(٢) ص: الآية ٥٤.

(٣) ق: الآية ٣٥.

ولهذا قال سبحانه في أعمال الكفار: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾^(١) فلا بدّ لقبول العمل الصالح من الإيمان بالله الواحد الأحد، والانقياد لرسالة الإسلام.

﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ في الدنيا، وذلك بأن ييسر له تعالى سُبُل العيش الكريم والرزق الحلال، ويجعله قانعاً راضياً به، لا يبغى على أحد، ولا يحسد أحداً، كما يجعله يتذوق حلاوة الإيمان، ويرد اليقين، ولذة عبادة الله تعالى ومناجاته، ويعرف حكمة خلقه ووجوده، فتسكن نفسه، وتقر عينه، فلا قلق في نفسه ولا حيرة ولا اضطراب في قلبه وفكره.

ومهما أوتي الإنسان من أسباب الغنى المادي، فلن يستشعر هذه المعاني، ويتذوق طعم السعادة، إلا في ظلال الإيمان بالله وطاعته وعبادته، ولهذا ترى كثيراً من الناس في العصر الحاضر عندما ابتعدوا عن الإيمان وطغت عليهم الأفكار المادية الملحدة، أصبحوا أسرى القلق والهم والحيرة، والشعور بالضيق والتمزق، وصدق سبحانه القائل: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾^(٢).

فلا ينبغي للمسلم أن يغتر بأسباب الرخاء المادي الفاجر الكافر، كما مر معنا الإشارة إليه في قوله ﴿أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾ إنهم بسبب بعدهم عن معاني الإيمان، لم يجنوا منه إلا الهم والقلق والحيرة والتمزق، وكل ذلك بسبب جوع أرواحهم، وجفاف مشاعرهم، وقسوة قلوبهم، وظلمة عقولهم.

وبعد الحياة الطيبة في الدنيا، الجزاء الكريم يوم القيامة: ﴿ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [٩٧].

الحصن الحصين من أسباب الردة

ومن أراد أن يثبت الله تعالى على الحق، ويمنعه من أسباب الردة والتعلق

(١) الفرقان: الآية ٢٣.

(٢) طه: الآية ١٢٤.

بشهوات الدنيا، والتأثر بوساوس الشيطان، فعليه أن يكثر من تلاوة القرآن الكريم بتدبر وخشوع، فهو الحصن الحصين للإيمان، ولهذا اتجهت الآيات إلى حث المؤمنين على تلاوة القرآن الكريم والتأدب بأدابه والعمل بأحكامه:

﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ [٩٨] أي: الجأ إلى الله تعالى واسأله أن يعيذك ويحميك من وساوس الشيطان المبعد عن رحمته تعالى، لأنه سبحانه لعنه وطرده من ساحات فضله وكرمه.

﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [٩٩] فلا تسلط للشيطان على المؤمنين ما داموا يذكرون الله تعالى ويتوكلون عليه جلّ جلاله، فالؤمن ذو القلب الموصول بالله تعالى لا يقبل وساوس الشيطان، ولا يتأثر بها.

﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾ أي يتخذون الشيطان ولياً بطاعته وقبول وساوسه.

﴿والذين هم به مشركون﴾ [١٠٠] أي: والذين هم بسبب طاعتهم للشيطان ومتابعتهم له يشركون بالله تعالى ويكفرون به.

موقفان متباينان

ومن رحمته تبارك وتعالى وحكمته أنه نزل القرآن الكريم مفزقاً على مدى بعثته عليه الصلاة والسلام التي امتدت ثلاثة وعشرين عاماً، وفي خلال ذلك اقتضت رحمته وحكمته سبحانه أيضاً نسخ بعض الآيات الكريمة بآيات أخرى، رحمةً بالمؤمنين وتثبيتاً لهم، فقال سبحانه يبين موقف الكفار من ذلك وموقف المؤمنين:

﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾ بنسخ الآية الأولى بالآية الثانية، كما قال في موضع آخر: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾^(١). ﴿والله أعلم بما ينزل قالوا﴾ أي: الكفار ﴿إنما أنت

(١) البقرة: الآية ١٠٦.

مفتر ﴿أي: متقول على الله تعالى، تأمر بشيء ثم يبدو لك ما يخالفه.

﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ [١٠١] حكمة الله تعالى في ذلك، ولا يميزون بين الخطأ والصواب.

﴿قل نزله روح القدس﴾ وهو جبريل عليه السلام، الملك المقدس المطهر المؤمن على وحي الله تعالى إلى أنبيائه.

﴿من ربك بالحق﴾ الثابت والحكمة التامة.

﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ أي: ليثبت بالقرآن الكريم الذين آمنوا، فيزدادوا إيماناً وثباتاً، فكلما أنزل الله تعالى شيئاً من القرآن الكريم ازداد المؤمنون إيماناً وثباتاً، كما قال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾^(١).

وخاصة عندما ينزل الله تعالى آية ناسخة لحكم آية، ويرى المؤمنون ما في الآية الناسخة من رعاية لمصالحهم، وملاءمة للمرحلة الجديدة التي هم فيها، فترسخ عقائدهم وتطمئن قلوبهم، فالتنزيل الحكيم يرعى مصالحهم ويقدر ظروفهم وأحوالهم. ففيه الرحمة والحكمة، وفيه أيضاً: ﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ [١٠٢].

جهل وغباء وكذب

ومما يدل على شدة جهل المشركين وغبائهم، اتهامهم النبي ﷺ بتهمة واضحة البطلان، وهي التي ذكرها سبحانه بقوله:

﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر﴾ أي: الله سبحانه يعلم أن المشركين يقولون إن الذي يعلم محمداً ﷺ القرآن بشر، وهو جبر الرومي غلام حداد عند الصفا، كان النبي ﷺ يجلس إليه أحياناً، وكان مولى لبني الحضرمي.

(١) التوبة: الآية ١٢٤.

فرد سبحانه عليهم فريتهم التي تدل على شدة جهلهم وغبائهم، وتدل أيضاً على شدة حقدهم على النبي ﷺ، فقال:

﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ أي: لسان الذي يشيرون إليه ويميلون إليه أعجمي لا يفصح، ولا قدرة له على البيان.

﴿وهذا﴾ القرآن الكريم ﴿لسان عربي مبين﴾ [١٠٣] عجز عن مثل سورة منه الفصحاء والبلغاء، فكيف فاتهم إدراك هذه الحقيقة الواضحة!!!

وسبب هذا الغباء والجهل كفرهم بالله تعالى وآياته، فإن الكفر يؤدي إلى ظلمة في القلب والنفس، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله﴾ إلى الحق، فتبقى قلوبهم مظلمة محرومة من نور الإيمان وبصائرهم.

﴿ولهم عذابٌ أليم﴾ [١٠٤] في يوم القيامة.

والكذب على الله تعالى لا يليق بأي إنسان مؤمن، فكيف اتهموا به أصدق الصادقين رسول الله ﷺ الذي اشتهر بينهم بالصدق والأمانة ﴿إنما يفترى الكذب﴾ على الله تعالى ﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾ [١٠٥] أي: إن الكفار هم الكاذبون على الحقيقة، الكاملون في الكذب، لأن الكفر بالله تعالى أعظم الكذب.

الإكراه على الكفر

وفي سياق آيات التثبيت هذه، توعدهم الله تعالى المرتدين عن الإسلام فقال: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾ فعليهم غضب من الله تعالى سيأتي بيانه ﴿إلا من أكره﴾ على الكفر بإكراه شديد ملجئ، فكفر بلسانه فقط ﴿وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ ثابت على الإيمان، ساكن به، لم يتزعزع فهو مؤمن، وما تلفظ به لسانه بالإكراه لا يؤثر على عقيدته.

وقد أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر، حتى خشي على نفسه

القتل، أنه لا إثم عليه، إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين عنه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر^(١).

وأجمع العلماء أيضاً على أن من أكره على الكفر، فاختر القتل، أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة^(٢).

وقد روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية^(٣).

روي أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسمية على الارتداد، فأباه أبواه، فربطوا سمية بين بعيرين، ووُجئت بحربة في قُبلها، وقالوا: إنما أسلمت من أجل الرجال، فقتلوها، وقتلوا ياسراً، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقبل يا رسول الله إن عماراً كفر، فقال رسول الله ﷺ: «ملئ عمار، رضي الله عنه، إيماناً إلى مُشاشه»^(٤) وأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال: «مالك؟ إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»^(٥).

وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه الملجئ، وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه إعزازاً للدين كما فعله أبواه^(٦).

﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾ أي: طاب به نفساً، وفتح له قلبه باختياره ﴿فعليهم غضب من الله﴾ أي عليهم غضب عظيم، وأظهر الاسم الجليل ﴿الله﴾ لتربية المهابة، وتقوية تعظيم العذاب^(٧) ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ [١٠٦].

(١) (٢) تفسير القرطبي ١٠/١٨٢.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٤٨.

(٤) أخرجه النسائي. (المشاش) هي رؤوس العظام اللينة التي يمكن بضعها. كذا في تيسير الوصول ٣/٢٤٣.

(٥) (٦) (٧) تفسير أبي السعود ٥/١٤٣.

﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ أي: هذا العذاب بسبب إيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة.

﴿وأن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ [١٠٧] الذي يختارون الكفر ويرضون به.

﴿أولئك﴾ المرتدون إلى الكفر باختيارهم ورضاهم ﴿الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم﴾ فلا ينتفعون بها لمعرفة دلائل الإيمان ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ [١٠٨] عن ربهم بسبب تعلقهم بشهوات الدنيا ﴿لا جرم﴾ حقاً ﴿أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ [١٠٩] إذ ضيعوا أعمارهم، وصرفوها في شهوات الدنيا الزائلة الحقيرة.

عقوبة المرتدين

هذا التشديد والوعيد يدل على أن الردة عن الإسلام جريمة منكرة كبيرة، فللعقيدة الإسلامية قداستها وحرمتها، ولا يسمح الإسلام أبداً لضعاف النفوس أن ينتهكوا حرمة عقيدته، ويتسلقوا أسوارها، ويخرجوا عليها، بعد أن دخلوا فيها طائعين راغبين. فلا عجب أن يشدد الله تعالى كل هذا التشديد على المرتدين، ويتوعدهم كل هذا الوعيد، فيعلن سبحانه غضبه العظيم عليهم، والطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، ويحكم عليهم بالحرمان من الهداية في حال إصرارهم على ردتهم وإيثارهم لشهوات الدنيا الزائلة الحقيرة.

ولا عجب أيضاً أن يأمر النبي ﷺ بقتل المرتد المصر على ردة بقوله الكريم: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١).

فللعقيدة الإسلامية حرمتها وقداستها، ويجب صيانتها من عبث العابثين كما كان بعض يهود المدينة المنورة يفعلون، فقد كانوا يعلنون دخولهم في الإسلام أول النهار نفاقاً واستهزاءً، ثم يرتدون عنه في آخر النهار، وأنزل الله تعالى فيهم

(١) صحيح البخاري في كتاب الجهاد رقم ٣٠١٧.

قوله الكريم: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾^(١).

الحث على التوبة والرجوع إلى الإسلام

وبعد كل هذا التشديد والوعيد للمرتدين، فتح الله تعالى لهم باب التوبة، وحثهم على الإنابة والعودة إلى الحق، والرجوع إلى الطريق القاصد المستقيم، فالإسلام دين الرحمة، ومهما نأى الإنسان بنفسه عن طريق الحق، وجمحت به أهواؤه وشهواته، فإنه يستطيع الرجوع، والتوبة تمحو الحوبة، ولحظة صدق وإخلاص مع الله تعالى تزيل شقاء عمر كامل، ولهذا قال سبحانه:

﴿ثم إن ربك للذين هاجروا﴾ إلى المدينة المنورة.
﴿من بعد ما فُتِنُوا﴾ أي: من بعد ما عذبوا حتى ارتدوا عن الإسلام.
﴿ثم جاهدوا وصبروا﴾ على الجهاد وما أصابهم فيه.
﴿إن ربك من بعدها﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر.
﴿لغفورٌ رحيمٌ﴾ [١١٠] يغفر لهم ويرحمهم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله:

وذكر عن بعض أهل التأويل أن هذه الآية نزلت في قوم من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا تخلفوا بمكة بعد هجرة النبي ﷺ، فاشتد المشركون عليهم، حتى فتنوهم عن دينهم، فأيسوا من التوبة فأنزل الله فيهم هذه الآية، فهاجروا ولحقوا برسول الله ﷺ^(٢).

ولا شك أن هجرة الديار والأوطان والأهل والعشيرة والخلان، أمر شاق على النفس، إلا أن شعور المؤمن بمسؤوليته الشخصية أمام الله تعالى يوم القيامة، يهون مشقة الهجرة عليه، فلن ينتفع يوم القيامة بقرابة أو عشيرة أو

(١) آل عمران: الآية ٧٢.

(٢) تفسير الطبري ١٤/١٢٣.

ولد، ولهذا قال سبحانه يذكر المهاجرين بهذا المعنى: ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ فلا يجادل أحد عن أحد، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿يوم يفر المرء من أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾^(١).

﴿وتوفي كل نفس ما عملت﴾ أي: تعطى كل نفس جزاء عملها كاملاً، لا عمل غيرها ﴿وهم لا يظلمون﴾ [١١١].

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن هذه الآية التي تحت على التوبة والهجرة، قد تأخر نزولها كثيراً عن آيات السورة، إذ نزلت بعد الهجرة بعدة سنوات في المدينة المنورة، ومع ذلك جاءت متسقة تماماً في موضوعها مع موضوع السورة، وفي موضعها من آيات السورة، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، فمع أن ترتيب نزوله يختلف اختلافاً كبيراً عن ترتيب آياته في السور، فإن الانسجام والاتساق بين آياته في السور يبدو واضحاً وقوياً لكل من يتدبر معاني الكتاب الكريم.

نعمة الأمن والطعام

وانتقلت الآيات من وعيد وتهديد المرتدين إلى وعيد وتهديد الجاحدين. بيان ما يترتب على عدم شكر النعمة من نزعها وحرمان أصحابها منها، وقربت لهم هذا المعنى بمثل واقعي فيه تعريض كبير بهم، قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة﴾ قال ابن كثير رحمه الله: هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، يُتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿أولم نكن لهم حرمًا آمناً يجيى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾^(٢) وهكذا قال ههنا: ﴿يأتيها رزقها رغداً﴾ أي: هنيئاً سهلاً^(٣).

(١) عبس: الآيات ٣٤ - ٣٧.

(٢) القصص: الآية ٥٧.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٤٩.

﴿من كل مكان﴾ في الأرض، إذ تحمل إلى أسواق مكة البضائع والأرزاق من جميع البلاد.

وتدل الآية على أن الأمن والاستقرار، وتوفير الطعام والأرزاق، من النعم الكبرى، فإن الأمن والطعام نعمتان عظيمتان، تعرف قيمتهما على وجه الخصوص الشعوب المضطهدة المظلومة المحرومة منهما، بسبب الحكام المستبدين المتاجرين بطعام شعوبهم وضروريات عيشهم في ظل أنظمة جائرة فاسدة، تعطي الحاكم حق تملك وحيازة كل ما لدى الأفراد من نتاج جهدهم وكدهم.

﴿فكفرت بأنعم الله﴾ أي: جحدت نعم الله تعالى عليها، بالشرك والكفر والإعراض عن دعوة النبي ﷺ.

﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾ بنزع نعمة الطعام والأمن عنهم، فعرفوا طعم الجوع والخوف، وكانا شديدين عليهم أحاطا بهم من كل جانب، حتى صاروا لهم كاللباس.

حدث ذلك لمشركي مكة بعد الهجرة، إذ سلط الله سبحانه النبي ﷺ وأصحابه عليهم وعلى طرق تجارتهم وميرتهم، وقطع سبحانه أيضاً المطر عنهم، حتى جفت بواديهم ونفقت مواشيهم، قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ، دعا عليهم بسنين، كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد، حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله عز وجل: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ قال: فأتي رسول الله ﷺ فقيل له: «يا رسول الله استسق لمضر فإنها قد هلكت، قال: لمضر؟ إنك لجريء، فاستسقى، فسُقوا...»^(١).

وكل ذلك ﴿بما كانوا يصنعون﴾ [١١٢] من الكفر والشرك والفجور.

﴿ولقد جاءهم رسول منهم﴾ أي: من جنسهم، يعرفونه بأصله ونسبه وخلقه، وبعثته ﷺ فيهم أعظم نعم الله تعالى عليهم.

(١) صحيح البخاري في كتاب التفسير رقم ٤٨٢١.

﴿فكذبوه﴾ في رسالته، وطعنوا في صحة نبوته.
﴿فأخذهم العذاب﴾ بما أنزل فيهم من الخوف والجوع.
﴿وهم ظالمون﴾ [١١٣] وهم في حال ظلمهم وبغيهم وكفرهم.

أهم المحرمات من الأطعمة

وبعد أن انتهت الآيات من تهديد الكافرين، توجهت إلى المؤمنين تأمرهم على سبيل الإباحة أن يأكلوا من رزق الله تعالى، ويتمتعوا بما أحل لهم من الطيبات ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ ثم عليهم بعد ذلك أن يشكروا الله تعالى ﴿واشكروا نعمة الله﴾ بمعرفة حقها، فلا يقابلوها بالكفران والعصيان ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ [١١٤] أي: إن كنتم حقاً تعبدون الله وحده، فاعرفوا قدر نعمه عليكم، واشكروه عليها.

ومن الشكر أن يقف الإنسان عند حدود ما أحل الله تعالى له، فلا يتجاوزها إلى المحرمات، وأهمها في المطاعم ما ذكره سبحانه بقوله: ﴿إنما حرم عليكم الميتة﴾ التي ماتت حتف أنفها من غير ذبح شرعي ﴿والدم﴾ المسفوح ﴿ولحم الخنزير﴾ وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن في لحم الخنزير أضراراً بالغة كثيرة، وأنه ناقل جيد لكثير من الأمراض الخطيرة، حتى إن بعض الباحثين من المسلمين ألف كتاباً في الأمراض التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان، جاء فيه: الخنزير حيوان قذر يأكل النجاسات والقمامات ومخلفات المجازر والجيف والجردان والفئران... إلى غير ذلك، ويصاب بعدد كبير من الأمراض، وبائية وغير وبائية، لا تقل عن /٤٥٠/ مرضاً، ويقوم بدور الوسيط لنقل أكثر من /٥٧/ مرضاً وبائياً إلى الإنسان، غير الأمراض العادية الأخرى التي يسببها أكل لحمة مثل: تليف الكبد، وعسر الهضم، والحساسية الغذائية، وتساقط الشعر من الرأس، وتصلب الشرايين، وضعف الذاكرة، والعقم، وتنشيطه لمرض الربو والروماتيزم، وكثرة الأكياس الدهنية، ثم آثاره السيئة على العفة والغيرة في التكوين النفسي^(١).

(١) الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم ص ٩١.

﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي: وحرّم عليكم كل ما ذبح على غير اسمه تعالى، فالواجب الذبح على اسمه تعالى، لأنه هو الخالق لهذه الذبائح، وهو الذي سخرها لنا وأحلها، فلا يحل الأكل مما ذبح على غير اسمه تعالى، كما قال جلّ وعلا: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾^(١).

ومن يسر الإسلام أنه أباح المحرمات عند الضرورة الملجئة إليها، ولهذا قال سبحانه: ﴿فمن اضطر﴾ إلى الأكل من هذه المحرمات، فيحل له بشرط أن يكون ﴿غير باغ﴾ أي: غير قاصد بالأكل منها المعصية، بل قصده حفظ حياته لأنه لا يجد غيرها ﴿ولا عاد﴾ ولا متجاوز المقدار الذي يحفظ حياته، فالضرورات تقدر بقدرها^(٢)، فهو كقوله سبحانه: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾^(٣).

وكذلك قال هنا أيضاً: ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ [١١٥] فإنه سبحانه يعلم حاجة المضطر، فيتجاوز عنه ويغفر له.

ومن الشكر أيضاً الانقياد والتسليم لأحكام دين الله تعالى وشرعه، والوقوف عندها، ورفض كل ما يخالفها من القوانين والشرائع الوضعية المستحدثة، فالحلال ما أحله الله تعالى في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، والحرام ما حرّمه سبحانه في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾ أي: لا تحلوا ولا تحرموا بمجرد قول تنطق به ألسنتكم من غير دليل، فكل قول فيه تحليل وتحريم، ولا يستند إلى دليل شرعي من الكتاب والسنة، قول كاذب، مردود على صاحبه.

وقوله ﴿تصف ألسنتكم الكذب﴾ من فصيح الكلام، جعل قولهم كأنه

(١) الأنعام: الآية ١٢١.

(٢) انظر تفصيل هذا الحكم في كتاب: الحلال والحرام في سورة المائدة.

(٣) المائدة: الآية ٣.

عين الكذب، فإذا نطقت به ألسنتهم، فقد حلت الكذب بحليته وصورته، كقولك: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر^(١).

وقد مر معنا في السورة مثل هذا في الآية الكريمة: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى...﴾.

فالتحليل والتحريم من غير دليل شرعي افتراء على الله تعالى، ولهذا قال: ﴿لَتَفْتُرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾ [١١٦] أي: لا يحققون فلاحاً ولا نجاحاً، فالشرائع والقوانين المخالفة لشرع الله تعالى لا تحقق إلا الظلم والفساد.

﴿متاع قليل﴾ أي: يتمتعون في ظل قوانينهم الجائرة الظالمة متاعاً قليلاً، لا يلبث أن ينقطع ويزول.

﴿ولهم عذاب أليم﴾ [١١٧] يوم القيامة، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿لَا يَغْرَنَكُ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٢).

ثم ذكر الله تعالى مثلاً واقعياً لما يترتب على عدم الانقياد والتسليم لدين الله وشرعه، وضرب الأمثال سمة بارزة في سورة النحل كما مر معنا.

فعندما رفض بنو إسرائيل الانقياد والتسليم لأحكام الشريعة التي كلفوا بها، شدد الله تعالى عليهم، وحرّم عليهم كثيراً من الطيبات التي أحلها لهم:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: فيما أنزلناه عليك من قبل، كقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(٣).

(١) انظر تفسير النسفي ٦٥١/٣.

(٢) آل عمران: الآيتان ١٩٦ - ١٩٧.

(٣) الأنعام: الآية ١٤٦.

﴿وما ظلمناهم﴾ فيما وضعنا عليهم من الآصار التشريعية الثقيلة ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [١١٨].

ثم رحمهم سبحانه بشريعة الإسلام السمحة الميسرة التي أنزلها على سيدنا محمد ﷺ، فإذا ما انقادوا لها وآمنوا بها غفر سبحانه لهم كل ما سلف منهم من جحود وعناد.

﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ أي عملوا ما يسيء إليهم كالكفر والمعاصي، وهم متصفون بصفة الجهالة، وهي الطيش والسفه وعدم النظر في العواقب، وهي التي كان النبي ﷺ يستعيز منها في دعائه، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا خرج من بيته قال: «بسم الله، توكلت على الله، اللهم إنا نعوذ بك من أن نزل أو نضل أو نضلّم أو نُظلم، أو نجهل أو يُجهل علينا»^(١).

﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ أعمالهم واستقاموا على أمر الله وشرعه.

﴿إن ربك من بعدها﴾ أي: التوبة ﴿لغفورٌ رحيم﴾ [١١٩].

(١) أخرجه أصحاب السنن واللفظ للترمذي كما في تفسير الوصول ٧٢/٣.

الخاتمة

- الرجل الأمة إبراهيم عليه السلام -

وتوجت الآيات خاتمة السورة بما يتناسب تماماً مع موضوعها الأساسي الذي دارت في فلكه، التوحيد والشكر، فذكرت إبراهيم عليه السلام إمام الموحدين الشاكرين، فقال سبحانه مقررأ ومؤكداً:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ وهي الجماعة الكثيرة، فقد كان عند إبراهيم عليه السلام من الخير الكثير ما يوجد عند أمة، فقد جمع الله تعالى فيه كمالات لا تكاد توجد إلا متفرقة في أمة جمّة، وهو عليه الصلاة والسلام رئيس الموحدين، وقدوة المحققين، نصب أدلة التوحيد، ورفع أعلامها وخفض رايات الشرك، ونكّس أعلامها^(١).

وهو أمة أيضاً، لأنه الإمام الذي يقتدى به، حتى أمر خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ بالافتداء به، كما سيأتي.

وهو عليه السلام أمة أيضاً، لأنه كان يعلم الناس الخير، كان عبد الله بن مسعود يثني على معاذ بن جبل رضي الله عنهما ويقول: إن معاذ بن جبل كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين... وقال: الأمة: الذي يعلم الناس الخير، والقانت: المطيع لله عز وجل وكذلك كان معاذ معلماً للخير مطيعاً لله عز وجل ورسوله^(٢).

(١) انظر روح المعاني ١٤/٢٤٩.

(٢) كتاب معاذ بن جبل للمؤلف عن أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.

﴿قانتاً لله﴾ مطيعاً لله سبحانه، قائماً بأمره.

﴿حنيفاً﴾ مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق القائم على التوحيد.

﴿ولم يك من المشركين﴾ [١٢٠] في أي وقت من الأوقات، وبذلك رد الله تعالى على اليهود والنصارى في زعمهم أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، ورد سبحانه أيضاً على كفار قريش عندما قالوا: نحن على ملة إبراهيم. وجاء هذا الرد صريحاً في قوله تعالى:

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ (١).

﴿شاكراً لأنعمه﴾ أي: كان عليه السلام قائماً بحق شكر نعم الله تعالى عليه، وهي شهادة عالية ربانية في إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كما قال سبحانه في موضع آخر ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ (٢).

ثم بين سبحانه بعض نعمه على إبراهيم عليه السلام، فقال:

﴿اجتبه﴾ أي: اصطفاه واختاره للنبوّة والرسالة.

﴿وهده إلى صراط مستقيم﴾ [١٢١] وهو دين الإسلام القائم على التوحيد.

﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ أي: أعطيناه في الدنيا كل ما يجعل حياته حياة طيبة حسنة، أو جعلنا له سمعة حسنة طيبة عند جميع الأمم، فكل الناس، على اختلاف مللهم ونحلهم، يحبون إبراهيم ويحترمونه ويشنون عليه ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ [١٢٢].

ومما يدل على فضل إبراهيم عليه السلام، أن أفضل الأنبياء وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ أمر باتباع إبراهيم في ملة التوحيد: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ [١٢٣] بل كان إمام الموحدين وقدوتهم، وهو تأكيد لما سبق تقريره.

(١) آل عمران: الآية ٦٧.

(٢) النجم: الآية ٣٧.

الآخرون السابقون

ثم عرّضت الآيات باليهود الذين لم ينقادوا لأحكام دين الله وشرعه، فحرمهم الله تعالى من نعمة كبيرة، وحولها إلى غيرهم، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتَ﴾ أي: فرض تعظيم يوم السبت، والتفرغ فيه للعبادة ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: على الذين اختلفوا في شأنه مع نبيهم موسى عليه السلام، إذ أمرهم بيوم الجمعة، فخالفوه واختاروا يوم السبت، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، وهذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه تبع، فاليهود غداً، والنصارى بعد غد»^(١).

﴿وإن ربك ليحكم بينهم﴾ أي: يقضي بينهم ويحازيهم على مخالفتهم لأمر نبيهم ﴿يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ [١٢٤].

الاستمرار في الدعوة

ثم توجهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ تأمره أن يستمر على طريق الدعوة، وتبين له الأسلوب الأمثل فيها، فكأنها تقول له: لا ينبغي للعقبات والمعوقات التي يقيمها المشركون المعادون على طريق الدعوة أن تجعلك تتوقف عن دعوتهم وتبليغهم، بل يجب عليك أن تستمر في السير على طريق الدعوة:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة﴾ وهي القول المحكم الصحيح القائم على الدليل القاطع الملزم، الذي يوضح الحق، ويزيل الشبهة.

﴿والموعظة الحسنة﴾ وهي الكلمة المذكرة بأمر الله تعالى، والزاجرة عما نهى عنه، والتي تقدم بأسلوب عاطفي وجداني مقنع.

﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ أي: وجادل المعاندين منهم بأحسن طرق

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم من كتاب الجمعة رقم ٨٥٥.

المجادلة، في رفق ولين ومن غير فظاظه، أو جادلهم بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس، ويحلل العقول^(١).

﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ [١٢٥] أي: إنما عليك أن تدعوهم بهذا الأسلوب الطيب الكريم، أما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما، فهو بيد الله تعالى العليم بالضالين والمهتدين.

ثم التفتت الآيات إلى المؤمنين تبين لهم كيفية التعامل مع غير المسلمين، لتقريبهم من الإسلام، وتعريفهم بمبادئه السامية الكريمة بأسلوب عملي وخاصة المبدأ الذي قرره الآية الكريمة التي سبق ذكرها ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ فالعدل يقتضي المماثلة في المعاملة، كأن يعاقب الجاني بمثل جنايته:

﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ فمن اعتدى عليكم فاقصوا منه بالمثل، ولا تزيدوا عليه، فإن الزيادة ظلم، والظلم محرم في الإسلام فهو كقوله سبحانه في موضع آخر: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾^(٢) والآية شرعت أولاً العدل ثم حثت على العفو، وهو الإحسان، وهو ما حثت الآية هنا عليه ﴿ولئن صبرتم﴾ عن المعاقبة بالمثل ﴿لهو خير للصابرين﴾ [١٢٦] الذين يجسسون أنفسهم عن الانتقام، ويتجاوزونه إلى مرتبة العفو والإحسان.

وهي مرتبة رفيعة عزيزة، شرعها الله تعالى على سبيل النذب والتفضل في آيات كثيرة، منها: ﴿ولن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾^(٣).

وألزم الله تعالى بها النبي ﷺ تكريماً له وتشريفاً، قال العلامة المفسر أبو السعود العمادي رحمه الله: أمر عليه الصلاة والسلام صريحاً بما ندب إليه غيره تعريضاً من الصبر، لأنه أولى الناس بعزائم الأمور، لزيادة علمه بشؤونه سبحانه، ووفور وثوقه به، فقال:

(١) انظر تفسير النسفي ٦٥٦/٣.

(٢) الشورى: الآية ٤٠.

(٣) الشورى: الآية ٤٣.

﴿واصبر﴾ على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذى، وما عانيت من إعراضهم عن الحق بالكلية^(١).

﴿وما صبرك إلا بالله﴾ أي إلا بتوفيقه ومعونته وتشييته.

وقد صبر ﷺ لله تعالى، وعفا عنهم عندما تمكن من الانتقام منهم الله تعالى أيضاً عندما فتح مكة، وقال لهم: «ما تقولون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: أقول كما قال أخي يوسف ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٢).

﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي: لا تحزن على الكفار المعاندين المعرضين عن دعوتك.

﴿ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾ [١٢٧] أي: لا يضيغن صدرك من مكرهم وكيدهم فإن الله ناصرك وكافيك وعاصمك من كيدهم ومكرهم.

ثم ختم الله تعالى السورة بهذه البشارة الكريمة الرحيمة للنبي ﷺ خصوصاً وللمؤمنين عموماً، فقال:

﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ [١٢٨] ينصرهم ويؤيدهم ويمنعهم، فمن أراد أن ينصره الله ويمنعه فليكن من المتقين المحسنين.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم
ويثبتنا على طريقهم

(١) تفسير أبي السعود ١٥٢/٥.

(٢) رواه النسائي في سننه وابن سعد في الطبقات.

المراجع

- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، دار المعرفة بيروت ط ٤.
- غرائب القرآن ورجائب الفرقان (تفسير النيسابوري) المطبوع على هامش جامع البيان.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) تحقيق، أبو إسحاق اطفيش.
- روح المعاني للآلوسي، دار الفكر بيروت.
- مختصر تفسير ابن كثير اختصار الصابوني، دار القرآن.
- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم)، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- تفسير البيضاوي المطبوع مع مجموعة من التفاسير، دار إحياء التراث.
- تفسير الخازن المطبوع مع مجموعة من التفاسير، دار إحياء التراث.
- تفسير النسفي المطبوع مع مجموعة من التفاسير، دار إحياء التراث.
- أضواء البيان للشنقيطي، المطبوع على نفقة الأمير أحمد.
- فتح القدير للشوكاني، دار المعرفة بيروت.
- في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق.
- صحيح البخاري مع فتح الباري، الطبعة السلفية.
- صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر إدارة الإفتاء.
- تيسير الوصول إلى جامع الأصول للشيباني، البابي الحلبي.
- الترغيب والترهيب للمنذري تعليق عمارة، الطبعة القطرية.
- السيرة النبوية لابن هشام، مكتبة الكليات الأزهرية.
- معاذ بن جبل للمؤلف، دار القلم سلسلة أعلام المسلمين.
- الحلال والحرام في سورة المائدة للمؤلف، دار القلم.

- نظم الدرر للبقاعي ، مطبعة الدكن .
- الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج للمؤلف ، دار القلم .
- القرار المكين للطبيب مأمون شقفه ، مطبعة دبي .
- العسل فيه شفاء للناس للطبيب محمد نزار الدقر ، المكتب الإسلامي .
- الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم لأحمد جواد ، دار السلام .
- مجلة العلم التونسية العدد ٢١ سنة ١٩٧٤ م .

الفهرس

٥ المقدمة
٧ موضوع سورة النحل
٩ الفصل الأول: المجموعة الأولى من النعم
١١ حقيقة هامة
١١ حياة القلوب ونور العقول
١٣ الخلق والحق
١٥ الأنعام منافع وجمال
١٦ رواحل ومراكب
١٧ إعجاز ومعجزة
١٩ السبيل القاصد والسبل الجائرة
٢٠ من بلاغات القرآن الكريم
٢١ نعم من السماء والأرض
٢٢ تسخير الليل والنهار
٢٢ تسخير الشمس والقمر والنجوم
٢٤ معارض للفن والجمال في الأرض
٢٥ تسخير البحر
٢٦ الجبال أوتاد الأرض
٢٨ علامات في النهار والليل
٢٩ عجز وقصور
٣٣ الفصل الثاني: جحود وعناد ومفارقات مستنكرة
٣٥ حملة على الأصنام

٣٦ حاملو الأوزار
٣٨ الواقعون في شر أعمالهم
٣٨ مثوى المتكبرين
٤٠ مقارنة
٤٢ الظالمون لأنفسهم
٤٢ المحتجون بالقدر
٤٥ إنكارهم يوم القيامة
٤٦ صورة وضيفة
٤٧ رواد الطريق
٤٨ القرآن والسنة
٥٠ تهديد ووعيد
٥١ مواكب الساجدين
٥٣ تقرير التوحيد
٥٤ المنعم الحقيقي
٥٥ في مواجهة الأخطار
٥٦ مفارقات مستنكرة
٥٨ الأجل المسمى
٦٠ أعجب المفارقات
٦١ مواساة وتكريم
٦٣ الفصل الثالث: المجموعة الثانية
٦٥ عبرة ونعمة
٦٦ مصانع اللبن
٦٧ اللبن الخالص
٦٨ عتاب ومنة
٧٠ مصانع العسل
٧١ رحيق الأزهار
٧٢ السُّبُل المذللة
٧٣ العسل غناء وشفاء

٧٤ من إعجاز السنة النبوية العلمي
٧٥ معالجات بعض الأمراض بالعسل
٧٦ التفاوت في الآجال
٧٨ التفاوت في الأرزاق
٧٩ نعمة الزواج والحياة العائلية
٨٠ المثل الأول
٨١ المثل الثاني
٨٣ الفصل الرابع : المجموعة الثالثة
٨٥ الإخراج من البطون
٨٦ وسائل التمكين
٨٧ نعمة المساكن والأثاث
٨٨ نعم الحماية والوقاية
٨٩ تمام النعمة
٩٠ من مشاهد يوم القيامة
٩٣ الفصل الخامس : مواساة وتثبيت
٩٥ الشريعة الكاملة
٩٦ العدل في الإسلام
٩٨ الإحسان
٩٩ المنهيات الثلاثة
١٠٠ الثبات على الإسلام والوفاء بعهده
١٠١ فهم سَيء
١٠٣ التحذير من زلة القدم
١٠٣ أهم أسباب الردة
١٠٤ الحياة السعيدة الطيبة
١٠٥ الحصن الحصين من أسباب الردة
١٠٦ موقفان متباينان
١٠٧ جهل وغباء وكذب
١٠٨ الإكراه على الكفر

١١٠ عقوبة المرتدين
١١١ الحث على التوبة والرجوع إلى الإسلام
١١٢ نعمة الأمن والطعام
١١٤ أهم المحرمات من الأطعمة
١١٩ الخاتمة
١١٩ الرجل الأمة إبراهيم عليه السلام
١٢١ الآخرون السابقون
١٢١ الاستمرار في الدعوة
١٢٥ المراجع
١٢٧ الفهرس